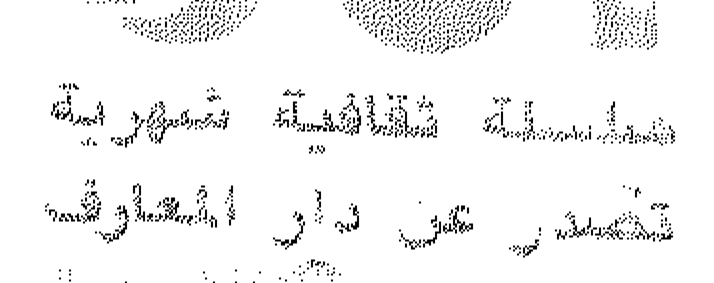
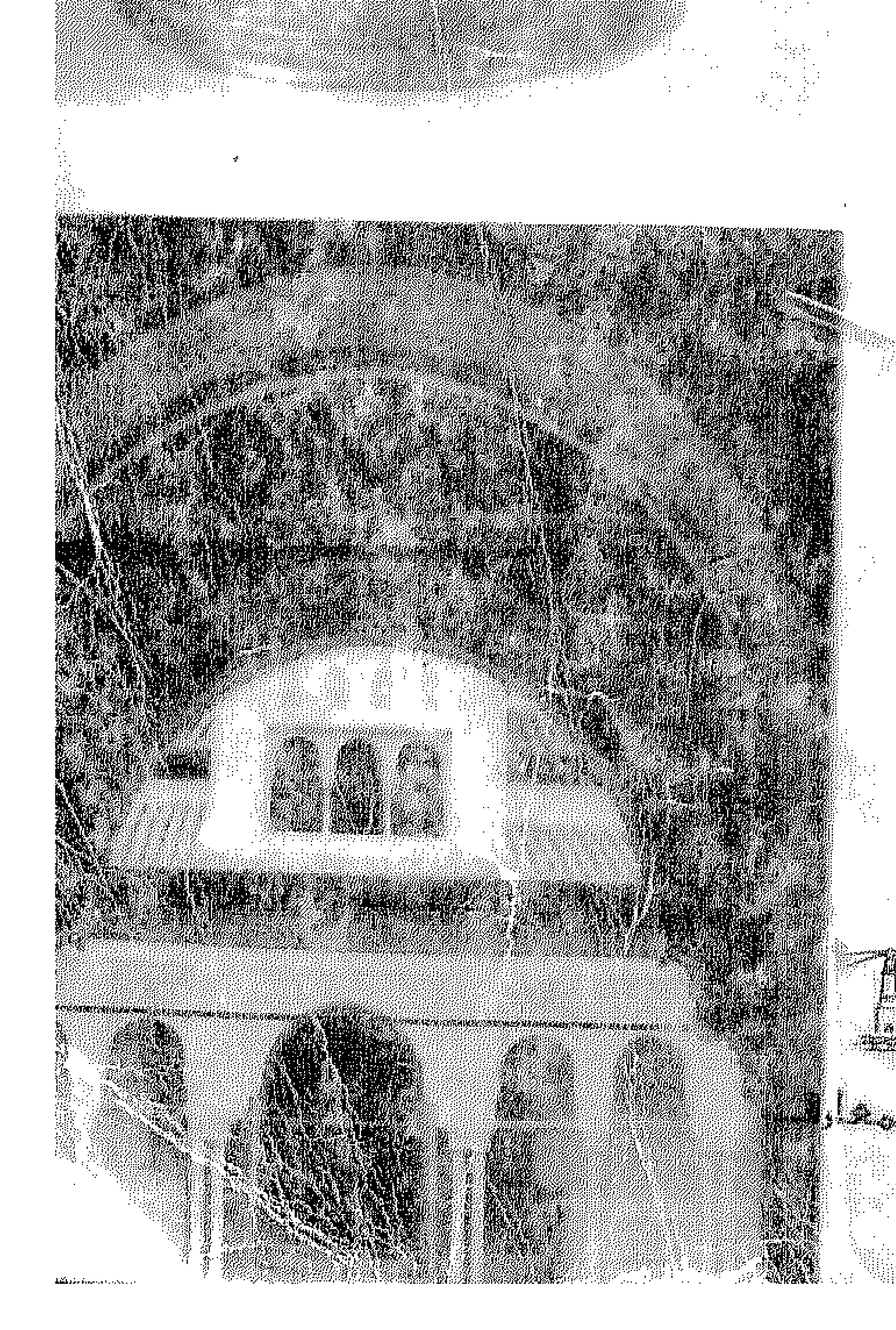
اقرأ


سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

أحمد إسماعيل يحيى

الآثار الإسلامية في الوطن العربي





أحمد إسماعيل يحيى

الآثار الإسلامية في الوطن العربي



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

السياحة أحد الأنشطة الإنسانية الهامة فى حياة الأفراد والأمم ؛ ترفيها وتثقيفًا وتعبدًا وتوددًا ، ووعظًا للخلف بآثار السلف ، وتعارفًا بين الناس ، وإزالة للحواجز بين الأجناس .

ولعل من أهم روافد السياحة زيارة المتاحف لتحصيل المعـــارف ، أو السفر إلى المساجد والأماكن المقدسة تعبدًا لرب العالمين ، وطاعة للنبيين ، ووقوفا على آثار السلف الصالحين كما أمر الدين .

والوطـن العـــربى غنى بالآثار عامة والإسلامية منها خـــاصة ، كالمساجد التى يُشد إليها الرحال ، والبنايات القديمة التى ترفل فى حلل الجمـال والجـلال ، وتنطـق بالعظمة والشموخ والكمـال ؛ إذ يكـاد كل أثر منهـا أن يكون سجلا أمينـا عن تاريخ مؤسسيه ، وفنون العمـارة الدالـة على العصر الذى بنى فيه .

وفى المســاجد المتـاحة بهذا الكتـاب ، يتجول المـؤلف مع

القـارئ بين أرجـــاء بعض هذه الآثار الروائع ليمتعه بما فيها من البـــدائع ، ويكشف له الكثير من محجوب أسرارها وعظمة تاريخها .

والله من وراء القصد ، وهو يهدى إلى أقوم سبيل

أحمد إسماعيل يحيى

الباب الأول

- السياحة الدينية والمساجد .
- السياحة الدينية والفنون والعمارة .
- السياحة الدينية ومتحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

السياحة الدينية والمساجد

ما من شيء يحفز الإنسان إلى العمل الصالح والارتقاء بذاته البشرية وبدرجات الحياة الإنسانية قدر تنمية القيم الدينية والمثل الروحية لدى الناس عامة والشباب منهم خاصة ، ذلك أن من أهم مشكلات الشباب فى عصرنا ضآلة المعارف الدينية ، وافتقاد القدوة الحسنة الإنسانية ، وضعف الشعور بالانتماء والقومية .

ومنذ زمن قديم والمسلمون مستهدفون أمة وثقافة ودينًا وتاريخًا ، بل إن الشرق كله ظل عبر عصور طويلة ممتدة مستهدفا كأرض للأديان ، وكشعوب اصطفى الله من أبنائها الأنبياء والرسل صفوة بنى الإنسان ، ففى السنوات الطويلة المظلمة التى منيت فيها البلاد الإسلامية بألوان الاستعمار تدهورت فيها الحياة بكل مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية والدينية ، حتى بدا الإسلام غريبًا فى بلده وأرضه ، وبدت تعاليمه وأخلاقه وأحكامه غريبة عن أهلها .

وفى هذه الحقب الرديئة روج المستعمر بين المسلمين لثقافته وتاريخه وتقاليده وسيرة رجاله ، وسلك لذلك فى نفوس الناس سبلاً ومسالك

شتى بعضها نابع من خططه وأكثرها مستمد من بروتوكولات حكماء صهيون .

ولقد استطاع المستعمر أن يسخر الثقافة وأجهزة الإعلام والسياحة تسخيرًا فعالاً فى تحقيق أهدافه ، ونجح فى أن يقرن مفهوم السياحة باللّهو والترفيه ، والعبث والفجور ، والقمار والخمور ، وأن يجعل لها فى أذهان الناس مفهومًا ماديًّا خالصًا ساد فى أذهان العباد حتى طمس مفهوم السياحة الروحية الدينية أو كاد ، ذلك مع أن الله عز وجل حين تحدث فى كتابه عن (السائحين والسائحات) عنى بهم المؤمنين والمؤمنات . وحين تحدث عن السير فى الأرض قصد من الحديث العظة والعبرة .

ولكن الاستعمار بخيله ورجله ، وخبثه ونجسه ، وأضوائه وضوضائه ، خدع الناس ومكر بهم فانغمسوا فى اللّهو ، وعميت أبصارهم عن مغبة الأمر ، بما بث فيهم الاستعمار من مذاهب وفلسفات وما أثاره فى نفوسهم من غرائز وشهوات ، فاستحبوا الأولى على الآخرة وشغفوا بالماديات ، فيا لسوء ما آل إليه حالهم ، وما أشَدَّ حاجتهم إلى نذير يوقظهم ،حتى يعودوا إلى منابع دينهم وعبَر تاريخهم وآثار سلفهم والاقتداء بأبطالهم ، فتقوى عندهم الإرادة ، ويتطلعون إلى استعادة ما كان لهم من السيادة ، وقت أن كان نهارهم للفتح وليلهم للعبادة .

ولقد أردت بكتابي هذا أن يكون شعاعًا من النور فى هذه الظلمة الحالكة ، يوقظ لدى الناس حبهم لتاريخهم وآثار الصالحين من سلفهم ليقتدوا بهم ويهتدوا ، وما من شك فى أن الحديث عن المساجد ودور العبادة يذكرنا برسالة المسجد قديمًا وحاجتنا إليها حديثًا ، فالمساجد ودور العبادة هى بلا منازع أخطر المؤسسات الاجتماعية تأثيرًا ، وأعلاها صوتًا ونفيرًا ، وأنقاها وأجداها رسالة ومصيرًا .

• وقد أجمع المؤرخون على صدق ما جاء به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس ببكة مباركًا وهدًى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾ (٩٦ ، ٩٧/ آل عمران) .

فالمسجد الحرام والكعبة المشرفة أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله عز وجل .

• كما أجمع المؤرخون وكتّاب السير على أن أول مسجد بنى فى الإسلام هو مسجد (قباء) الذى يطلق عليه مسجد التقوى ، لقول الله سبحانه وتعالى :﴿لمسجدٌ أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين﴾ (١٠٨/ التوبة) .

• والمعروف أن المسلمين بمختلف طبقاتهم قد اهتموا اهتماما كبيرًا بإقامة المساجد ، وأن المساجد بقيت على الدوام أهم المنشآت

التى حظيت بالعناية والرعاية والتقدير الكبير ، فالمسجد هو (بيت الله) فمكانته جليلة ، ودَوْر المسجد فى حياة الناس وهدايتهم وغرس بذور التقوى فى قلوبهم دور خطير ، ينال الناس به خير الجزاء فى الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، قال تعالى : ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (٣٦ - ٣٨/ النور) .

فهكذا تحدث الله عز وجل عن مكانة المسجد وقدسيته ، وتميزه على غيره من المنشآت .

● وتروى النصوص التاريخية أن الرسول محمد بن عبدالله ﷺ قد شارك بنفسه فى بناء مسجد قباء ، كما شارك بنفسه فى بناء مسجده بالمدينة ليرغب المسلمين على العمل فيه ، وهكذا اقتدى به الصحابة ، فرأينا عمر بن الخطاب يحمل التراب فى ثوبه ليزيله عن صخرة المعراج ببيت المقدس ثم يبني مسجد الصخرة ، ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ فهلاّ اهتم المسلمون بإقامة المساجد وإعمارها !! قال تعالى : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ . (التوبة : ١٨) .

● إن الاهتمام بدور المسجد عودة صحيحة للمنطلق الإسلامى

الأول ، فالمسجد هو المؤسسة التى انطلق منها المدُّ الإسلامى ليعمَّ الدنيا كلها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، فلقد كان المسجد هو الجامعة ، وهو البرلمان ، وهو المنتدى الإسلامى الكبير ، وهو المحكمة التى أصدرت أعدل الأحكام على هدى من شريعة الله ، وكان مركز القيادة المؤمنة الذى انطلقت منه جيوش الإسلام لفتح الدنيا كلها ولتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وكم سجل التاريخ أروع الصفحات فى رحاب رسالة المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى وجامع المنصور ومسجد قرطبة والجامع الأموى وجامع الزيتونة وجامع القرويين والجامع الأزهر ، فأين يا ترى ذهبت هذه الملامح المشرقة وإلامَ الغفلة بعد أن تضاءل دور المسجد حتى انحصر فى دائرة لا تتعدى أداء الصلوات الخمس ثم يلفه الصمت وتولج أبوابه !

● لقد آن للمسجد أن يتحرر من كونه مؤسسة رسمية وأن يعود إلى عصور ازدهاره الأولى وممارسة دوره فى تربية المسلم تربية إسلامية كاملة ، وأن يبين له الحلال والحرام فيما اختلط عليه من أمور الحياة المعاصرة ، وأن يصحح المفاهيم الخاطئة لدى الناس وبخاصة الشباب ، وأن يقوم بدوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وحل مشاكل الناس الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية ، وأن يحارب الإجرام والإرهاب ويدعو إلى المحبة والتعاون ،

وأن يحارب العصبية القبلية والطائفية ، والرشوة والربا ، وانحراف الحكام واستغلال النفوذ ، وأن يواجه بقوة كل مظاهر التفتت والتحلل فى كيان الأمة وأن يقضى على التسول والترنح باسم الدين ، وأن يحافظ على الطابع الإسلامى الأصيل لبلاد المسلمين بمحاربة كل ما هو دخيل زائف ، وأن يقضى على البدع والشركيات وخرافات المتنفعين بالدين ، وأن يربى الدعاة الصالحين ، وأن يقيم الملاجىء والمبرات والجمعيات الخيرية ، وأن يكون مركز دفاع قوى من الإسلام والمسلمين ، وأن يراقب أجهزة الإعلام والمؤسسات التربوية بما يصحح ثقافة ومفاهيم المسلمين ، وأن يعنى عناية خاصة بالشباب ، وأن يدعو الحكومات إلى تحكيم الشريعة الإسلامية فى جميع أمور الدنيا والدين .

● إن الالتزام بآداب المساجد وأحكامها ينبغى العناية به بين الناس حتى لا تضيع هيبة بيوت الله ويذهب وقارها ، وحتى لا يدخلها الأجانب تحت دعوى السياحة إلا بالشروط والقواعد الصحيحة ، فمن عمارة المساجد تنظيفها وتنزيهها عما ينجسها ويؤذى المصلين فيها ، فعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول والقَذَر ، إنما هى لذكر الله تعالى وقراءة القرآن » ، كما نهى ﷺ عن المخاط أو البزق على أرض المسجد ، فمن فعل ذلك

فليحكّه ، وألا يذهب الرجل إلى المسجد وقد أكل من الطعام ما يتأذى بريحه المصلون ، وأن يأخذ زينته عند المسجد ، وألا يختلط بالناس فى المسجد من كان به عاهة مؤذية كالجذام أو عِلَّة معدية حتى تزول ، وألا يتخذ المسجد سوقًا للبيع والشراء أو النداء على ضالته ، أو رفع الصوت بغير مقتضى .

● وقد اختلف في تزيين المساجد ، فكره ذلك قوم وقالوا : بدعة مستحدثة ، وأباح قوم ذلك ، وقالوا بأنه تعظيم للمسجد وتحسين له ، وقد أمر الله تعالى بتعظيمها فى قوله : ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ...﴾ ، وورد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه بنى مسجد النبى ﷺ بالساج وحسَّنه . وقال أبو حنيفة رضى الله عنه : لا بأس بنقش المساجد بالذهب ، وورد عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبى ﷺ وبالغ فى عمارته وتزيينه فى زمان ولايته قبل خلافته ، ولم ينكر أحد عليه ذلك .

وذكر أن الوليد بن عبد الملك أنفق فى عمارة مسجد دمشق وفى تزيينه مثل خراج الشام ثلاث مرات .

* * *

السياحة الدينية
والفنون والعمارة

ترتبط السياحة الدينية بالفنون والعمارة ارتباطًا وثيقًا ، فالتأثير والتأثر بينهما متبادل ، ولاشك أن عناية الفنان والمعمارى بالمبانى والإنشاءات ذات الصبغة الدينية تكون أشدّ وأوْلى من عنايته بغيرها ، إذ تدفعه عقيدته دفعًا إلى الإبداع والتجويد والتطوير والتجديد عند عمله فى المساجد والكنائس والمعابد والأديرة باعتبارها بيوت لله ، والدارس للفنون والعمارة فى هذه الآثار ، لا يملك إلا الدهشة والإعجاب والانبهار ، مما يراه من رقى فنون البناء والتشييد والنحت والتصوير والخطّ والتعبير فى هذه الأماكن ، وهذا الأمر واضح جلىّ منذ القدم فى معابد الأقدمين كالفراعنة والأشوريين والإغريق والرومان .

وفى بلاد العرب التى حكمها المسلمون منذ فجر الإسلام حتى اليوم كثير من هذه الآثار ، وبخاصة الآثار الإسلامية التى يكاد كل أثر منها يكون تعبيرًا صادقًا وسجلاً أمينًا عن تطور حركة الفنون والعمارة في عهد بنائه وتشييده أو عهد ترميمه وتجديده ، ولا شك أن كل أثر من آثار السلف يصير مصدرًا لإلهام الخلف ، فكم من فنان عظيم أو معمارى عبقرى كانت السياحة الدينية سبيله

إلى معرفة أسرار هذه الآثار ، وإلى صقل موهبته وتنمية معارفه وثقافته ، بما يؤثر تأثيرًا فعالاً فى أفكاره وإبداعاته وأعماله .

وللعمارة الإسلامية علاقة وطيدة بغيرها من مصادر الفنون والعمارة وخاصة الفنون المسيحية الشرقية ، والفنون الساسانية فى إيران والعراق ، والفن القبطى فى مصر ، وقد كانت سوريا مركز الفنون المسيحية فى الشرق ، حيث تأثرت كل التأثر بأساليب الفنون الهيلينية ، وقد كانت بلاد الشام عامرة بالمبانى التى ترجع إلى هذا الطراز ، فنقل عنها المسلمون بعض أساليب العمارة والزخرفة ، فنرى مثلاً فسيفساء المسجد الجامع فى دمشق التى يرجع أكثرها إلى عام ٧١٥م ، وعناصر الزخرفة فيها هيلينية ، كذلك تختلط الفنون الهيلينية مع الساسانية فى قصر المشتى (٧٤٣ – ٧٤٤ م) .

وعلى كل حال فقد كانت الأساليب الفنية الهيلينية منتشرة فى الشرق الأدنى قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة ، كما كانت الأساليب الفنية الإيرانية منتشرة أيضًا في تلك البقاع ، والواقع أنه كان هناك نماذج بين الفنين الإيرانى والهيلينى منذ فتح الإسكندر للشرق الأدنى فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، فتسربت إليه الأساليب الفنية الهيلينية الممزوجة بأساليب الفنَّين الهندى والساسانى .

أما فى مصر فقد كان الفن القبطى مزدهرًا فى مصر عند فتح المسلمين لها ، والفن القبطى كما نعرف مقتبس من الفن المسيحى المبكر ، ومن

الواضح أن الفنون المصرية كانت فى العصر الفاطمى قد تطورت وتحولت وأصبحت فنًا إسلاميًا إلى حد كبير ، وإلى العرب الفاتحين يرجع الفضل كل الفضل فى نشر الدعوة الدينية وإحياء الحركة الروحية ، وإلى تابعيهم يرجع الفضل فى أنهم جمعوا شتى الأساليب الفنية القديمة فى بلاد الفتوحات ، وطبعوها بطابع دينهم فأنشئوا فنًا إسلاميًا متميزًا فى شخصيته عن غيره من الفنون .

العمارة الإسلامية فى العصر الأموى :

بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، وعلى أثر استيلاء الأمويين على الخلافة ، انتقلت عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة والكوفة إلى دمشق ، وبدأ الأمويون يفكرون فى تشييد المساجد الباذخة لتنافس فى عظمتها أفخم كنائس المسيحيين ، واعتمد الأمويون فى أول الأمر على الصناع والفنانين المسيحيين والسوريين وأغدقوا عليهم الأموال ، وشجعوهم على الإبداع ، حتى نشأ الطراز الأموى فى الفن الإسلامى الذى يبدو جَلِيًّا فى مسجد قبة الصخرة ببيت المقدس (٧٢هـ - ٦٩١م) الذى سنتحدث عنه فيما بعد بالتفصيل ، كذا المسجد الأموى بدمشق ، الذى شيده الوليد بن عبد الملك بين عامى (٨٨ - ٩٦ هـ) والذى يعتبر من أهم العمائر الأموية .

وقد احتفظت الدولة الأموية فى الأندلس وفى حوض البحر الأبيض

المتوسط وفى شمال أفريقيا بأغلب الأساليب الفنية فى الطراز الأموى الشرقى ، كما فى مسجدى قرطبة بالأندلس والقيروان فى تونس .

العمارة الإسلامية فى العصر العباسى :

فى سنة (١٣٢ هـ) - (٧٥٠ م) فى دمشق نودى بأبى العباس المعروف فى التاريخ بالسفاح ، أول خليفة ومؤسس للدولة العباسية ، وهو الذى نقل مقرّ الحكم من دمشق إلى الكوفة ، وفى هذه الأثناء فرّ عبد الرحمن إلى الأندلس وأسس هناك إمارة قرطبة ، وقد اتخذ السفاح قصر ابن هبيرة مقرًّا وهو يقع بين الكوفة وبغداد ، ثم زاد فى مساحته وأطلق عليه اسم (الهاشمية) . وفى سنة (١٣٦ هـ - ٧٥٤ م) خلف أبو جعفر المنصور السفاح ، وأخذ يبحث عن موقع مناسب لبناء عاصمة جديدة للعباسيين ، حتى استقر الأمر على موقع مدينة بغداد ، وقبل ذلك بقليل (١٣٢ هـ) كان صالح بن على أول خليفة عباسى على مصر قد أنشأ مدينة العسكر شمال الفسطاط ، كما أنشأ قصرًا جديدًا للإمارة ، كما أنشأ أبو مسلم الخراسانى دارًا جديدة للإمارة فى مدينة مرو ، ويذكر الإصطخرى أن تصميم هذه الدار كان له تأثيره على ما جاء بعدها من العمائر العباسية .

تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر :

على أثر استيلاء العرب على بيت المقدس (١٧ هـ/ ٦٣٨ م) ،

أمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص بفتح مصر ، فتم ذلك فى العام التالى لفتح بيت المقدس ، وأمر عمر بن الخطاب عَمْرًا أن يبنى أول مسجد جامع بمصر ، وهو الجامع الشهير المسمى (جامع عمرو بن العاص) وهو أول مسجد أنشئ فى أفريقيا ، وكان بناؤه أول الأمر بسيطًا ، وقد تم تنسيقه وتجديده فى عهود مختلفة ، ولكن فى عصر عبد الله بن طاهر الوالى العباسى على مصر تم تجديده والزيادة فى مساحته بحيث صارت قدر مساحته الأولى ست عشرة مرة ، ويرجع إنشاء الأعمدة والعقود الموجودة فى رُوَاقِ القبلة إلى عهد (مراد بك المملوكى) وكذلك المئذنتان والمنبر والقبة فى زاويته الشرقية البحرية .

ومنذ الفتح الإسلامى لمصر بنى بها مدينة الفسطاط ثم مدينة العسكر ثم مدينة القطائع ، وقد أُطلق على مجموع المدن الثلاثة (الفسطاط والعسكر والقطائع) اسم مصر أو الفسطاط ، وهو الاسم الذى تميزت به القاهرة التى أسسها المعز لدين الله الفاطمى فيما بعد .

العمارة الإسلامية فى مصر فى العصر الفاطمى :

فى عام (٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م) أُرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى على رأس جيش من مدينة القيروان لفتح مصر ، فلما تم الفتح وسلمت الفسطاط ، اختط جوهر الصقلى

مدينة القاهرة على مساحة ثلاثمائة وأربعين فدانًا على شكل مربع تقريبًا تواجه أضلاعه الجهات الأربع الأصلية ، وكان طول كل ضلع من أضلاع المدينة ألفًا ومائتى متر ، وكان يتوسط المدينة قصران (القصر الكبير الشرقى والقصر الصغير الغربى) وبينهما ميدان لاستعراض الجند ، ويحوط المدينة سور كان مبنيا من الطوب اللبن ، ثم زاد أمير الجيوش بدر الجمالى فى مساحة المدينة ستين فدانًا وبنى السور من الحجر ، وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية التى امتدت من المغرب إلى الشام ، وحكمت الحجاز يومًا ما ، وقد كان بسور القاهرة عـدة أبواب ضخمة تغلق ليلاً ولم يبق منها الآن سوى بابى النصر والفتوح وباب زويلة فى الجنوب .

ومن أهم الآثار الفاطمة فى مصر الجامع الأزهر (٣٥٩/ ٣٦١هـ) ، وجامع الحاكم (٣٨٠هـ/٤٠٣هـ) ، وجامع الجيوشى (٤٩٨هـ) ، وجامع الأقمر (٥١٩هـ) ومشهد السيدة رقية (٥٢٧هـ) ، وسوف نتحدث عن الجامع الأزهر بتفصيل فيما بعد .

العمارة الإسلامية فى مصر فى العصر الأيوبى :

خضعت مصر للحكم الأيوبى نحو ثمانين عامًا ازدهرت خلالها العمارة والفنون الإسلامية ، ولاسيما المدارس الإسلامية والقلاع والأسوار ، وظهر الخط النسخى على العمائر وغيرها من التحف ،

واتخذ للنصوص التاريخية ، كما استعمل بجانبه الخط الكوفى للآيات القرآنية .

ومن مميزات هذا العصر التطور المعمارى لشكل المئذنة المعروف (بالمبخرة) وكذا القباب والمقرنصات ، ومن أهم العمائر التى تنسب للعصر الأيوبى مدرسة وضريح الصالح نجم الدين أيوب ، وقبة الخلفاء العباسيين خلف المشهد النفيسى ، (وقبة شجرة الدر التى تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية ، وقبة ومسجد الإمام الشافعى) .

العمارة الإسلامية فى مصر فى عصر المماليك :

ويعتبر عصر المماليك عصرًا ذهبيًا بالنسبة للعمارة الإسلامية فى مصر ، وفيه أنشئ عدد كبير من الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والخانات والوكالات والأسبلة ، وزادت العناية بالمآذن وواجهات المساجد والزخرفة بالرخام الملون والفسيفساء والصدف .

ومن أهم العمائر المدنية غير القصور والمنازل فى عصر المماليك : جامع الظاهر بيبرس ، ووكالة قايتباى ، وبيت القاضى بالجمالية بالقاهرة ، ومدرسة السلطان حسن بالقلعة ، ومسجد الغورى ، وقلعة قايتباى بالإسكندرية .

العمارة الإسلامية فى مصر فى العصر العثمانى :

فى سنة ٩٣٢ هـ/١٥١٠ م ، قضى العثمانيون على دولة المماليك فى مصر ، فرحل عن مصر كثير من مهرة الصناع وقل نشاط من بقى بها من العمال الفنيين ، وتأثرت العمارة الإسلامية فى القاهرة بتحولها من عاصمة لدولة كبيرة إلى مجرد مدينة تابعة للإمبراطورية التركية ، ولذلك يعتبر العصر العثمانى عصر الركود الفنى فى مصر ، باستثناء فترات قصيرة كفترة عبد الرحمن كتخدا ، ولكن العصر العثمانى يمتاز بإصلاح وترميم بعض المساجد القديمة كمسجد عمرو بن العاص وأضرحة الحسين والشافعى والسيدة نفيسة ، وأنشئت بعض الوكالات والمساجد ، كمسجد المحمودية بميدان صلاح الدين ، ومسجد سنان باشا ببولاق ، ومسجد الملكة صفية بشارع محمد على ، ومسجد البردينى بالداودية ، ومسجد عبد الرحمن كتخدا بالمغربلين وغيرها .

العمارة الإسلامية فى مصر منذ عهد محمد على :

استمر تأثير العمارة التركية على أساس العمارة فى مصر فى عهد محمد على وأتباعه ، ومن أهم المساجد فى هذا العصر مسجد محمد على بالقلعة ، ومسجد الرفاعى بميدان صلاح الدين .

السياحة الدينية
ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة

تغصّ مدينة القاهرة بالمتاحف التى تحوى الكثير من التراث الحضارى الإنسانى ، خاصة التراث الإسلامى ؛ الذى يعتبر بحق سجلاً دقيقًا وحافلاً ومتحدثًا بليغًا عن فنون كل عصر فى مصر ، وفى ميدان أحمد ماهر بباب الخلق بمدينة القاهرة ، يقف متحف الفن الإسلامى شامخًا مهابًا ، يربط فى قوة بين الماضى المجيد والحاضر الذى يتطلع إلى المستقبل بعين واثقة وقلب متوثب ، وقد اهتمت مصر منذ زمن قديم بحصر تراث العصور التى سبقت الفتح الإسلامى ، بعد أن تم التعرف على معظمه وتسجيله وإعداد المتاحف المناسبة له فى أهم الميادين والمواقع .

وفى نهاية القرن التاسع عشر بدأت مصر فى محاولة حصر التراث الإسلامى فى القاهرة والإسكندرية ومعظم المدن والقرى المصرية ، من عمائر ومساجد ، ودور وقبور وكنائس ، وتكايا ومدارس ، وأسبلة وأسواق ، ووكالات وخانات ، سواء ما كان منها مسكونًا أو مهجورًا أو متهدمًا أو آيلاً للسقوط ، ولأن

التراث الإسلامى فى مصر كثير ، ويمثل عدة عصور إسلامية فقد كانت الحاجة ملحّة إلى جمعه فى مكان واحد وحصره وتسجيله ثم تصنيفه والتحفظ عليه أو عرضه بالمتاحف .

وقد بدأت الحكومة المصرية أولى محاولاتها فى ذلك فى عام (١٨٨٠ م/ ١٢٩٧ هـ) فتم جمع وحصر وتسجيل كل القطع الفنية من المبانى الإسلامية القديمة من المصادر المختلفة ، وقد وجد أنها مجموعة فنية إسلامية عظيمة فى تعدد مصادرها ، واختلاف العصور التى تمثلها ، وتنوع المجالات والميادين الفنية لها ، وقد تم التحفظ على المنقول منها فى الإيوان الشرقى لجامع الحاكم بأمر الله الفاطمى .

ومع توالى الاكتشافات ونمو عدد التحف ، فقد بدئ فى تصنيفها وتنظيمها وعرضها فى متحف صغير أقيم لها على وجه الخصوص ؛ فى صحن هذا الجامع العريق الذى يلاصق سور القاهرة ، فى المسافة الواقعة بين باب النصر وباب الفتوح ، أشهر أبواب مدينة القاهرة المعزيّة ، وتمثلُ القطعُ الفينة التى تم جمعها العصور الإسلامية المتعاقبة على مصر بعواصمها الإسلامية الأربع : الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة .

ويعد متحف الفن الإسلامى معهدًا علميًّا يدرس من خلاله تاريخ الدول التى تعاقبت على حكم مصر ، ويتجلى ذلك فيما نقرؤه من نصوص مكتوبة أو منقوشة على مقتنيات المتحف .

دار الآثار العربية :

وقد استمر المتحف مقامًا فى صحن جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وفى عام (١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥ م) وكان الاستعمار البريطانى قد حل بمصر ، وهيمن رجاله على الوظائف الهامة ، ومن بينها المتاحف ، فى هذا العام أصدر (هرتس) دليلاً للمتحف ضمنه تعليقًا فنيًا وتاريخيًا لمقتنيات المتحف .

أما المبنى الحالى للمتحف الذى يقع فى ميدان أحمد ماهر بباب الخلق على ناصية شارعى بورسعيد والقلعة ، والذى يمكن التعرف عليه من خلال عمارته الإسلامية المميزة ، فقد استوعب كل التحف الإسلامية المنقولة إليه يوم ٩ شوال ١٣٢١ هـ/ الموافق ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣ م ، وكذا التى جمعت بعد ذلك .

ولكنّ الانطلاقة الحقيقية للمتحف فى مبناه الحالى كانت فى الحقيقة مع بداية سنة ١٩٠٤ م ، إذ أصبح يشكل واحدًا من أكبر التجمعات الفنية الإسلامية فى العالم أجمع ، بما يضمنه بين جدرانه من مجموعات فنية نادرة ، وقد أُطلق عليه وقتئذ اسم (دار الآثار العربية) .

أما حى (باب الخلق) الذى يقع به المتحف ، والذى يعد (نظريًا) خارج سور القاهرة القديم بأمتار قليلة ، فقد كانت

تسميته القديمة (باب الخرق) ، وهو اسم كان يطلقه العرب على كل فضاء تخرقه الريح ، ثم تحولت الراء إلى لام فى القرن التاسع عشر ، فصار الاسم (باب الخلق) بسبب أن كلمة (الخرق) مستهجنة عند العرب ، ولوقعها الثقيل على الأذن واللسان .

متحف الفن الإسلامى :

وفى عام ١٩٥٢ م ، وهو عام قيام الثورة المصرية وانطلاقة مصر ، فقد تم تغيير اسم (دار الآثار العربية) باسم (متحف الفن الإسلامى) ، وقد روعى عند تغيير الاسم مناسبته لحقيقة مقتنيات المتحف من تحف فنية إسلامية ، إذ أنها فى مجموعها عبارة عن مصنوعات الأقطار الإسلامية وليس العربية فقط ، وأنها تؤلف فى الوقت نفسه ثبتًا مجيدًا للفن فى عالم الإسلام ، وتؤرخ لحضارة عظيمة امتد تأثيرها من حدود الصين شرقًا إلى شواطئ المحيط الأطلسى فى الغرب ، ومن جبال البرانس شمالاً إلى بحر العرب فى الجنوب ، وهى كما نرى رقعة واسعة تضم شعوبًا مختلفة تدين غالبيتها بالإسلام ، ويقول الدكتور عبد الرحيم إبراهيم فى كتابه (تاريخ الفن فى العصور الإسلامية - المجلد الأول) : (إن كل المسميات ليست جامعة ، وإنما أصح المسميات جميعًا هو تسمية ذلك بالفن الإسلامى ، وذلك لأن الإسلام هو حلقة

الوصل التى ربطت بين بلدان العالم الإسلامى ، وهو الذى جمع شتاتها وجعلها وحدة واحدة ؛ على الرغم من تباين بيئاتها واختلاف أصولها) .

مقتنيات المتحف :

تعد مقتنيات هذا المتحف واحدة من أنفس مجموعات التحف الإسلامية وأكبرها ، وتشترك كلها فى أنها تعطى للرائى مذاقًا خاصًّا ذا نكهة إسلامية خالصة ، يتناسب مع تنوع المدارس الفنية التى تمثل الفن الإسلامى ، كما أن الرائى سيلاحظ بوضوح تطور هذه الفنون فى البلاد الإسلامية المختلفة .

وتشترك كلها كذلك فى كونها تعبر عن فن أرستقراطى غير شخصى ، فالصانع فيها مجهول الاسم فى الغالب أو مجرد شريك فى مجموعة العمل ، وهو فن يتميز بأنه يخشى الفراغ ويفزع منه ، كما أنه ليس فن المنحوتات أو التماثيل ، علاوة على أنه ابتكارى أصيل .

والقطع الفنية التى تعرض بالمتحف اقتنيت عن طريق عدة مصادر ، فمنها ما هو بالشراء ، وما هو بالإهداء ، وما هو نتيجة حفريات مختلفة أجريت في عدة مناطق أثرية ، كما أن منها ما تم الحصول عليه من العمائر المتبقية أو المتهدمة أو الآيلة نلسقوط .

وقد نمت مقتنيات المتحف نموًّا سريعًا وهائلاً ، فقد كان عدد التحف عام ١٩٠٣ م ٧٠٢٨ تحفة بينما يتجاوز عددها الآن ٨٢٠٠٠ تحفة متنوعة ، وهى تتزايد يومًا بعد يوم حتى تاريخ صدور هذا الكتاب .

ومن بين مقتنيات المتحف مجموعات الأحجار ذات الكتابات بنقوش بارزة أو محفورة ، وكذلك مجموعات النسيج والأخشاب والفخار والخزف والمشكاوات ونوافذ القلل . وتعد كل مجموعة من هذه المجموعات فى ذاتها نادرة وغنية ، يتمثل ذلك فى مجموعة الخزف الإيرانى ومجموعة الخزف التركى ، ومجموعة التحف المعدنية بعد شراء مجموعة رالف هراوى عام ١٩٤٥ م ، ومجموعة السجاجيد أيضًا ، بعد اقتناء جانب كبير من مجموعة الدكتور على إبراهيم عام ١٩٤٩ م . ولهذا فقد روعى عند عرض التحف فى العديد من القاعات أن تصنف حسب الطرازات الفنية : (أموى - عباسى - فاطمى - أيوبى - تركى - إيرانى) ، وأيضًا حسب مادتها بتدرج تاريخى : (خشب - معان - أسلحة - خزف - نسيج - حجر - رخام - زجاج - فنون الكتاب) . وتم عرض مجموعة السجاجيد على الجدران ، فى أماكن مختلفة من المتحف .

وللمتحف نشاطات كثيرة ، فقد أشرف المتحف على كثير من الحفريات الأثرية التى أجريت فى مناطق مختلفة ، وكان لنتائجها

شأن كبير فى مسار علوم الآثار الإسلامية والتأريخ لفترات التاريخ الإسلامى المختلفة ، وقد حققت بعض هذه الحفريات كشف جزء من مدينة الفسطاط شمل بعض الدور والشوارع والطرقات والمنتجات الفنية ، وكانت المدينة قد تعرضت لحريق مُدَبَّر أُتى عليها بكاملها إلا قليلاً فى أُواخر العصر الفاطمى .

• ومن بين نتائج الحفريات التى قام بها المتحف كان اكتشاف إحدى الدور الأثرية التى بنيت فى العصر الطولونى ، والتى تضم بعض الزخارف الجصيَّة النادرة ، إلى جانب كشف حمام فاطمى تحتوى جدرانه على بعض الصور والرسوم بالألوان المائية ، ومازالت هى الوحيدة من نوعها فى الفنون الإسلامية .

• كذلك فالمتحف له دور هام فى تطوير عرض مقتنياته ، وزيادتها من مختلف المصادر ، وتصنيفها ، وفى إصدار دراساته ، ومتابعة أُنشطة المتاحف الأخرى فى العالم .

• وللمتحف جهد بارز فى إصدار عدة دراسات علمية فى الفنون الإسلامية ، وقد أُصدر الكتاب الأول من إصداراته عام ١٩٥٣م عن مجموعة سجاجيد الصلاة (التركية) ، وأُصدر كتابه الثانى عام ١٩٥٧م عن صنج السِّكَّة فى فجر الإسلام ، وكتابه الثالث عام ١٩٥٩م عن معدات التجميل بالمتحف ، والرابع

عام ١٩٦٥ م عن فجر السّكّة العربية ، كما أصدر عددًا آخر من المؤلفات العلمية المتخصصة .

● ومكتبة المتحف تعد واحدة من أعظم المكتبات المصرية وأوفاها فى مجال الفنون الإسلامية ، وهى مكتبة خاصة يستعين بها باحثو المتحف فى أبحاثهم وأعمالهم الفنية ، كما أن للبحاثة من الخارج نصيب فيها ، سواء للدراسة أو الاطلاع .

● وبالمتحف قسم خاص يضم مجموعة من المصاحف النادرة ، وقاعة للروائع تضم قطعًا فريدة من الفن الإسلامى ، وأقدم لوحة أثرية ، واكبر مصحف مكتوب بالخط الكوفى ، وأبوابًا مطعمة بالفضة . بالإضافة إلى قاعة متخصصة لدراسة أنواع حرف المصريين ، وأدوات صناعتها ، وما بها من عناصر زخرفية ، ومدى تطور هذه العناصر فى الطرز المختلفة ، ولذلك فقد عرض المتحف مجموعة كبيرة من الحرف مرتبة حسب أنواعها أولاً ، ثم حسب عناصرها الزخرفية .

● وبالمتحف قسم للتصوير ، جاهز باستمرار لإمداد البحاثة ورجال الإعلام بما يطلبونه من صور ومعلومات للمقتنيات الفنية بالمتحف ، علاوة على أن هذا القسم يحتفظ بعدد هائل من الصور منذ زمن بعيد تعرض لتطور التحف وحالتها قبل ترميمها وتلك التى حدث لها ترميم وصور لها بعد الترميم .

• وبالمتحف أيضا قسم مجهز لترميم التحف ، بالإضافة إلى المتخصصين في فحص التحف لإثبات أصالتها من عدمه ، وهم خبراء على مستوى راق من الخبرة في مجالاتهم .

• وبالمتحف قاعة للمبيعات لإمداد الهواة والبحاثة ببعض المواد المتنوعة والصور والأفلام التسجيلية ، والسياحة الفنية لمقتنيات المتحف وشرائط الفيديو والمطبوعات المتخصصة .

وفي الفترة الأخيرة تم تجديد المتحف بتبديل شبكته الكهربائية ، وتبديل أرضياته بأرضيات رخامية بيضاء من طراز الأرابيسكو ، هذا بالإضافة إلى ضم جزء من دار الكتب المجاورة لإنشاء أكبر قاعة للنسيج ، وإنشاء قاعة جديدة للعملات ، وتغيير نظام مسار الزيارة للمتحف .

وقد تم عزل المتحف ونوافذه وأبوابه بالكامل عن الخارج لحماية المعروضات من التلوث والضوضاء .

إن هذا التراث الرائع القابع في ذلك الحيز الوقور يحتاج إلى نظرة جديدة وأسلوب جديد ، فلقد كان المتحف بشكله الحالي حتى عهد قريب أسطورة المتاحف ، ولكنه بوضعه الحالي لم يعد قادرًا على مواجهة التقنينات الحديثة ، واحترام الإبداع الفني الإسلامي يستوجب بالضرورة تطوير هذا المتحف العظيم حتى يستمر قادرًا على المنافسة وعلى أداء دوره الرائع .

الباب الثاني

- مكة المكرمة .
- والمسجد الحرام .
- والكعبة المشرفة .

مكّة المكرّمة (أمُّ القرى)
والمسجد الحرام - والكعبة المشرّفة

﴿إن أول بيت وضع للنّاس لَلّذى ببكة مباركًا وهدىً للعالمين * فيه آيات بيِّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا﴾

(٩٦ - ٩٧/ آل عمران) .

﴿ربِّ اجعل هذا البلد آمنًا وأجنُبنى وبَنىَّ أن نعبد الأصنام﴾

(٣٥/ إبراهيم) .

﴿قل إنّما أُمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذى حرَّمها﴾

(٩١/ النمل) .

والآيات التى تتحدث عن مكة المكرمة كثيرة ، ولا ينافسها فى كثرتها غير الأحاديث الشريفة التى تتحدث عن حب الرسول ﷺ لمكة وعن فضلها وفضل بيتها على سائر ما خلق الله عز وجل ، وقد أجمع العلماء على أن (مكة المكرمة) و (المدينة المنورة) أفضل بقاع الأرض ،وأن بيت المقدس يجىء تاليًا لهما فى ذلك .

مكة المكرمة :

لمكة أسماء كثيرة منها : مكة ، وبكة ، وأم القرى ، والقرية ،

والبلدة ، وهى مدينة فى شبه الجزيرة العربية ، ترتفع عن سطح البحر بنحو (٣٣٠ مترًا) ، ويرجع تاريخ عمارتها عند المؤرخين إلى عهد الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام سنة ١٨٩٢ قبل الميلاد .

وفى مكة المكرمة ولد النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، وفيها بعث ، ومنها شع نور الإسلام وخرجت دعوته حتى عمت أرجاء الأرض .

ويقع بمكة المسجد الحرام ، أول مسجد وضع فى الأرض ، وأعظم مساجدها قاطبة ، وأعلاها فضلاً وأجرًا ، فالصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه ، ويرجع زمن عمارته إبان سنة ١٧ هـ فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وظلت عمارته تتطور وتتجدد حتى تاريخ كتابة هذه السطور .

وفى وسط المسجد الحرام تقع الكعبة المشرفة ، وهى قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر مترًا ، وهى على شكل حجرة كبيرة مربعة البناء على وجه التقريب .

والملائكة هم أول من بنى الكعبة ، ثم آدم ، ثم شيث ولد آدم ، ثم إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام ، ثم العمالقة ، ثم الجراهمة ، ثم قصىّ بن كلاب الجدّ الرابع للنبى ﷺ ، ثم قريش وهو البناء الذى شارك فيه الرسول ﷺ ، ثم عبد الله بن

الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف الثقفى فى عصر عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ .

ثم أراد المهدى من خلفاء العباسيين هدم الكعبة وإعادة بنائها ، ولكن الإمام مالك نصحه بعدم فعل ذلك خوفًا من أن تصير ألعوبة لكل من يستطيع هدمها وإعادة بنائها من الملوك فيذهب وقارها من النفوس .

فبقيت الكعبة على حالها بعد الحجاج ، وهو ما كان عليه حالها أيام رسول الله ﷺ .

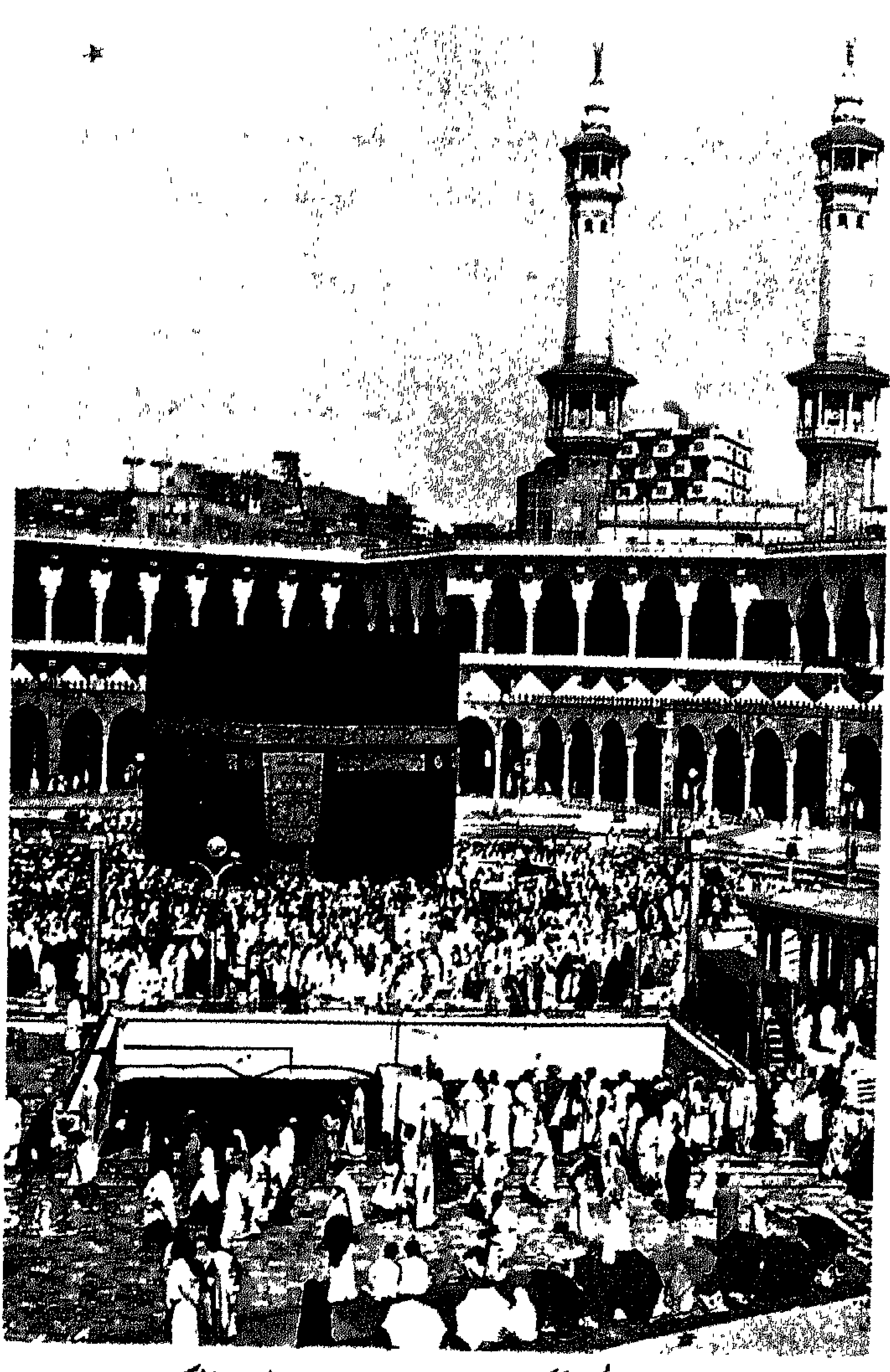
فضائل البيت الحرام
(يشاركه فى بعضها الحرم النبوى) :

● فمن دخل البيت الحرام كان آمنًا ، وهذا لفضل لم ينله أى مكان آخر فى الأرض .

● وقد جعله الله منذ القدم أول بيت خصص للعبادة فى الأرض .

● وقد جعله الله مباركًا وهدى للعالمين ، وكل الدلائل والآثار تؤكد ذلك .

● وفيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وليس ذلك فى غيره حتى فى المساجد التى يُشَدُّ إليها الرِّحَال كالمسجد النبوى والمسجد الأقصى .



الكعبة المُشَرَّفَة – ولقطة داخل الحرم المكى

• وقد اتخذه الله مكانًا لبيته وكعبته وقبلة المسلمين فى كل مشارق الأرض ومغاربها ولم يتخذ غيره .

• وفيه بئر زمزم التى ليس لمائها مثيل من حيث كونها شفاء وسقاء وطعام .

• والصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه .

• وفيه الحجر الأسود ، وهو الحجر الوحيد فى الأرض الذى ليس من الأرض ، فهو ليس بناتج عمل ولا هو مقطوع من جبل وإنما هو من يواقيت الجنة .

• وللبيت الحرام هذه المنزلة المقدسة حتى فى أيام جاهلية العرب ، ذلك مع انحرافهم وكفرهم .

• أنه محل تكريم الله والناس ، يقول الحسن البصرى رضى الله عنه فى أن من دخله كان آمنًا : (كان الرجل يقتل الرجل ويضع فى عنقه صوفة ويدخل الحرام ، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج) .

وذلك من تكريم الله لبيته وجبر الناس على تكريمه . قال تعالى : ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم﴾ (العنكبوت : ٦٧) .

• أن أفئدة الناس تهوى إليه ، وأن الناس كلما حجوه ازدادوا

تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًّا وازداد البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًّا .

● أنه تجبى إليه كل الثمرات من كل أطراف الأرض .

● أن الله جعله حرمًا منذ خلق السموات والأرض ، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة .

● إنه لم يحل فيه القتال لغير النبى ﷺ ، وأنه لم يحل له إلا ساعة من نهار .

● أنه لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاه ، إلا لإذخر .

● أنه أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسول الله .

● أن كل جبار فيه هالك لا محالة بغضب الله .

● أنه ينفى الخبث والرفث والفسوق .

● أن ميت مكة لا ينقل إلى بلد غيرها لأنها أشرف أرض .

● أنه لا يجتمع فيه دينان بعد فتح الرسول ﷺ ، ولا يحج إليه إلا مسلم .

* * *

أوّل بيت وضع للنــاس

● عن عثمان بن ساج قال : أخبرنى ابن جريج قال : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء ولأنه فى الأرض المقدسة ، وقال المسلمون : الكعبة أعظم . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ .فنزل قول الله تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدًى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا﴾ (٩٦ - ٩٧/ آل عمران) .

فقال ﷺ : « ليس ذلك فى بيت المقدسْ » .

● وعن مغيرة عن إبراهيم قال : بكة : موضع البيت ، ومكة : القرية .

● وعن ابن عباس أنه قال : لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض ، بعث الله تعالى ريحًا هفافة فصفقت الماء ، فأبرزت عن حشفة فى موضع البيت ، كأنها قبة ، فدحا الله الأرض من تحتها ، فمادت .. ثم مادت ..فأوتدها الله تعالى بالجبال ، فكان أول جبل وضع فيها (أبو قبيس) ، فلذلك سميت مكة (أم القرى) .

● وعن مجاهد قال : لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت

قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفى سنة ، وإن قواعده لفى الأرض السابعة السفلى .

● وعن على بن الحسين رضى الله عنهما قال : قال لله تعالى لملائكته إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالت الملائكة : أى ربنا . أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ، ويتحاسدون ويتباغضون ويتباغون ؟ أى ربنا . اجعل هذا الخليفة مِنّا . فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء ولا نتباغض ، ولا نتحاسد ، ولا نتباغى ،ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ونطيعك ولا نعصيك .قال تعالى : ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ (٣٠/ البقرة) ، (فظنّت الملائكة أن ما قالوه ردٌّ على ربهم عز وجل ، وأنه سبحانه قد غضب من قولهم ، فلاذوا بالعرش يتضرعون ويبكون ، إشفاقًا لغضبه ، وطافوا بالعرش ثلاث ساعات ، فنظر الله عز وجل إليهم فغشيتهم الرحمة ، فوضع الله تعالى تحت العرش بيتًا على أربعة أساطين يسمى (الضّراح) ، ثم قال تعالى للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش ، فهذا هو البيت المعمور الذى فى السماء السابعة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدًا) .

ثم إن الله عز وجل أمر الملائكة أن يبنوا بيتًا فى الأرض بمثاله وقدره ، وأمر الله من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

● وعن ليث بن معاذ قال :قال ﷺ : (هذا البيت (الكعبة) خامس خمسة عشر بيتًا ، سبعة منها فى السماء إلى العرش ، وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى ، ولكل بيت من أهل الأرض والسماء من يعمره ، كما يعمر هذا البيت) .

● وعن عثمان بن يسار قال : بلغنى – والله أعلم – أن الله تعالى إذا بعث مَلَكًا من الملائكة لبعض أموره فى الأرض ؛ استأذنه ذلك الملك فى الطواف بالبيت ، فيهبط الملك مهللاً .أى قائلاً : (لا إله إلا الله) .

● وقال وهب بن منبه : إن الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام ، أمره أن يسير إلى مكة ، فطوى له الأرض ، فلم يضع قدمه فى شيء من الأرض إلا صار عمرانًا ، حتى انتهى إلى مكة ، وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان فيه من عظم المصيبة ، فعزّاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة وضعها بمكة فى مكان الكعبة ، ونزل معها الركن (الحجر الأسود) وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة ، وكانت الملائكة تحرس هذه الخيمة ، ويذودون عنها الجن ، وكانت الأرض سكنًا للملائكة والجن أيضًا ، وكان الملائكة فى الأرض كما هم فى السماء يسبّحون الله الليل والنهار ولا يَفتُرُون ، وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفًّا واحدًا مستديرين بالحرم الشريف ، الحِلُّ من ورائهم والحرم كله

أمامهم ،فلا يجاوزهم إلى الحرم جِنٌّ أو شيطان ، ومن أجل مقام الملائكة حُرِّم الحرم حتى اليوم ؛ ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة .

● وقال أبو هريرة رضى الله عنه : حجَّ آدم فقضى المناسك . ثم قال : يارب . إن لكل عاملٍ أجرًا ، فقال الله له : (أمَّا أنت يا آدم فقد غفرت لكَ ، وأما ذُرِّيتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرت له) .

ولما حج آدم استقبلته الملائكة بالرَّدم (اسم مكان) فقالت : (بَرَّ حجك يا آدم ، فقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام) ، قال : فما كنتم تقولون ؟ قالوا كنا نقول : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) . وكان آدم فى طوافه حول البيت يقول هذه الكلمات ويزيد عليها (ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وكان طواف آدم (سبع سبعات) بالليل و (خمس سبعات) بالنهار ، قال نافع : كان ابن عمر رحمه الله يفعل ذلك .

● وعن ابن عباس قال : حجَّ آدمُ وطاف بالبيت سبْعًا (أى سبع سبعات) فلقيته الملائكة فى الطواف ، فقالت : بَرَّ حجك يا آدم . أما إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام ، قال : فما كنتم تقولون فى الطواف ؟ قالوا : كنا نقول : (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ، قال آدم : فزيدوا فيها : (ولا حول ولا قوة إلا بالله) ، فزادت الملائكة فيها ذلك .

ثم حجَّ إبراهيم بعد بنائه البيت ، فلقيته الملائكة فى الطواف فسلموا عليه ، فقال لهم إبراهيم : ما تقولون فى طوافكم ؟ قالوا : كنا نقول قبل أبيك آدم : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، فأعْلَمْنا آدم عليه السلام ذلك ،فقال : زيدوا فيها : (ولا حول ولا قوة إلا بالله) . فقال إبراهيم : (زيدوا فيها : العلى العظيم) ، قال : ففعلت الملائكة ذلك .

وكانت خيمة آدم فى مكانها لم تزل حتى قبض الله آدم فرفعها الله تعالى . وقيل : إن شيث بن آدم عليه السلام بنى مكانها بيتا بالطين والحجارة ،فمازال معمورًا به وبأبنائه وأبنائهم من بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام ، فنسفه الطوفان وخفى مكانه ، حتى بَوَّأ الله مكانه لإبراهيم الخليل عليه السلام .

إبراهيم والبيت العتيق :

كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام بفلسطين ، فأوحى الله تعالى إليه أن : خُذْ هَاجَر وإسماعيل واخرج بهما إلى حيث أريك . فصدع إبراهيم لأمر ربه ، وخرج بهما إلى وادٍ غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، وكان قد أتى عليه الطوفان ، فلم يبق إلا ربوة ، وهناك تركهما إبراهيم كما أمره الله عز وجل ، ومضى عائدًا إلى فلسطين ؛ فهرولت هاجر خلفه تناديه ، وهو يسير لا يلتفت إليها ، فأعادت النداء عليه مرات ، وهو سائر على

حاله ، فقالت : الله أمرك بهذا يا إبراهيم ؟ قال : نعم . قالت : إذًا لا يضيِّعنا .

كان كل ما تركه لهما إبراهيم جرابًا من تمر وسقاء من ماء ، فلما نفد الماء وعطشت هاجر وعطش ابنها ؛ هرعت هاجر تبحث عن ماء ، أسرعت إلى الصفا تتلفت إلى الوادى فلم تر أحدًا ..

فهبطت تسعى إلى المروة فلم تر أُحدًا ، وكان من جزعها على ولدها أن كررت السعى بين الصفا والمروة ، حتى إذا سعت سبعًا وهى فوق المروة ، سمعت صوتًا فأسرعت حيث كان ابنها ، فوجدت الماء ينبع عند قدميه ، ولشد ما كانت دهشتها عظيمة كفرحتها ، فأخذت تحوط الماء بيديها وهى تقول : زمّ .. زمّ .. كما أخذت تملأ منها سقاءها ، وشربت حتى رويت وهى ترضع ابنها ، وإذا بملك يقول لها : لا تخافى الضيعة ، فإن هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيّع أهله .

ولما شبّ إسماعيل طلب الله عز وجل إلى إبراهيم أن يرفع هو وولده قواعد البيت . فلما بَدَآا ، ظلّل الله تعالى لهما مكان البيت بغمامة ، فكانت حفاف البيت الأوّل ، ولم تزل هذه الغمامة راكدة على حفافة تُظِلُّ إبراهيم وتهديه مكان القواعد حتى ارتفعت القواعد قامة ، ثم انكشفت الغمامة ، فذلك قول الله تعالى : ﴿وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ (الحج : ٢٦) .

ولما بلغ إبراهيم مكان الحجَرَ قال لإسماعيل : اذهب فالتمس حَجَرًا أضعه هنا ليُهدى الناس به .فذهب إسماعيل يطوف بالجبال ، فجاء جبريل إلى إبراهيم بالحجر . فلما عاد إسماعيل قال لأبيه : من أين لك هذا الحجر ؟ قال :« من عند من لم يَّتكِلْ على بنائى وبنائك » .

ولقد انهدم البيت بعد ذلك بمدة ، فبنته العمالقة ، ثم انهدم مرة أخرى ، فبنته قبيلة من جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش .

وأخبر زهير بن محمد قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت الحرام قال : أى ربى ، إنى قد فعلت فأرنا مناسكنا ، فبعث الله إليه جبريل فحجَّ به ، حتى إذا جاء يوم النَّحْر ، عرض له إبليس فقال له جبريل : احصب ، فحصبه بسبع حَصَيَات ، وكذلك فعل فى الغد ، وفى اليوم الثالث .

ثم علا على ثبير فقال : يا عباد الله اجيبوا ربكم ، فسمع دعوته من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فقالوا : « لبيك اللّهم لبيك » .

قال عثمان أخبرنى صادق أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : لقد مرَّ بفجِّ الروحاء سبعون نبيًّا على نوق حمر خطمها الليف ، ولبوسهم العباء ، وتلبيتهم شتى ؛ منهم يونس ابن مَتّى ، وكان يونس يقول : لبيك فراج الكرب لبيك ، وكان موسى يقول : لبيك أنا عبدك لبيك لبيك ، وكان عيسى يقول : لبيك أنا عبدك ابن أمتك بنت عبديك لبيك .

اسم الكعبة ومكة :

عن سفيان بن عيينة قال عن ابن أبى نجيح قال : إنا سميت الكعبة لأنها مكعبة على خلقه الكعب ، قال : كان الناس يبنون بيوتهم مدورة تعظيمًا للكعبة ، فأول من بنى بيتًا مربعًا حميد بن زهير ، فقالت قريش : ربّع حميد بن زهير بيتًا ، إمَّا حياةً وإمَّا مَوْتًا .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال ، إنما سميت بَكَّةَ لأنها يجتمع فيها الرجال والنساء . وعن مغيرة عن إبراهيم قال ، بكة موضع البيت ، ومكة : القرية .

وعن ابن جريج أنه كان يقول : إنما سميت بكة لتباكّ الناس (أى تزاحمهم) بأقدامهم قُدَّام الكعبة . وقيل : إنما سميت بكة لأنها تبكّ أعناق الجبابرة ، أى : تدقها وتكسرها .

وعن ابن عيينة عن ابن شيبة الحجَّى عن شبية بن عثمان أنه كان يشرف فلا يرى بيتًا مشرفًا على الكعبة إلا أمر بهدمه ، ولذا سميت كعبة ، لارتفاعها وشرفها ، يقال : فلان كعب قومه ، أى : أعلاهم مقامًا وأعزهم مكانة .

وعن محمد بن كعب القرظى قال : إنما سميت الكعبة بالبيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة .

وعن ابن شهاب الزهرى أنه بلغه إنما سمى البيت العتيق من أجل أن الله عز وجل يعتقه من الجبابرة .

وقال عثمان وقال مجاهد والسّدّى : إنما سمّى البيت العتيق ، لأن الله أعتق الكعبة من الجبابرة فلا يتجبرون فيها إذا طافوا بالبيت . وكان البيت يدعى (قادسًا) ويدعى (ناذرًا) ويدعى (القرية القديمة) ويدعى (البيت العتيق) .

قال عثمان : وأخبرنى النضر بن عربى عن مجاهد قال : البيت العتيق أعتقه الله عز وجل من كل جبار ، فلا يستطيع فيه جبار أن يدعى أنه إله ، ولا يقال له بيت فلان ، فهو بيت الله ،ولا ينسب إلا إلى الله عز وجل .

وعن ابن جريج عن مجاهد قال : من أسماء مكة : هى : (مكة) و (بكة) و (أم رحم) وهى (أم القرى) وهى (صلاح) وهى (كُوثى) وهى (البَاسَّة) وأول من أذن بها هو حبيب بن عبد الرحمن (أى للصلاة) .

وعن عثمان بن ساج عن ابن أبى أُنيسة قال : بكة موضع البيت ، ومكة الحرم كله . وقال غيره : إن أول بيت وضع للناس : أى أول مسجد بنى للمؤمنين هو الذى ببكة ، وبكة ما بين الجبلين تبك الرجال والنساء ، لا يضر أحد كيف صلى إن مرَّ أحدٌ بين يديه ، ومكة الحرم كله ، والكعبة قبلة أهل المسجد ، والمسجد قبلة أهل مكة ، ومكة قبلة بلاد المسلمين .

وعن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال : أخبرنى محمد بن

أبان عن زيد بن أسلم قال : بكة الكعبة ، والمسجد مبارك للناس ، ومكة ذى طوى – وهو بطن مكة – الذى ذكره الله فى سورة الفتح ، وعن ابن أبى يحيى قال : أسماء مكة : مكة وبكة وأم رحم وأم القرى والباسة والبيت العتيق والحاطمة (تحطم من استخف بها) – والباسة تبسهم بسًا ، أى تخرجهم وتنفيهم إذا غشموا وظلموا .

وعن مسلم بن خالد عن بن خيثم عن يوسف بن ماهك قال : كنت جالسًا مع عبد الله بن عمرو بن العاص ، فى ناحية المسجد الحرام إذ نظر إلى بيت مشرف على أبى قبيس فقال : أبيتٌ ذلك ؟فقلت : نعم . فقال : إذا رأيت بيوتها – يعنى مكة – قد علت أخشبيها[1] وفجرت بطونها أنهارًا ، فقد أزف الأمر . قال أبو الوليد ، قال جدى : لما بنى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس داره التى بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام أمر قومه أن لا يرفعوها فيشرفوا بها على الكعبة ، وأن يجعلوها أعلاها دون الكعبة ، فتكون دونها ، إعظامًا للكعبة أن تشرف عليها .

فلم تبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة إلا هدمت أو خربت إلا هذه الدار التى ذكر جد ابن الأزرق أنها بقيت على حالها .

---

(١) الأخشبان :جبلان بمكة .

في وصف الكعبة : ما كانت عليه وما صارت إليه :

قال أبو الوليد : « كان إبراهيم قد بنى الكعبة البيت الحرام طولها فى السماء تسع أذرع[1] : وطولها فى الأرض ثلاثون ذراعًا ، وكانت من غير سقف ، فجاءت قريش والنبى ﷺ يومئذ غلام ، فزادت فى طولها فى السماء تسع أذرع أخرى ، وسقفوها وأنقصوا من طولها فى الأرض ست أذرع وشبرا ، تركوها فى الحِجْر فاستقصرت دون قواعد إبراهيم ، وجعلوها ربضًا فى بطن الكعبة حين قصرت بهم النفقة ، وحجروا الحِجْر على بقية البيت لكى يطوف الطائف من ورائه ، فلم يزل على ذلك حتى كان زمن عبدالله بن الزبير ؛ فهدم الكعبة وردّها إلى قواعد إبراهيم وزاد فى طولها فى السماء تسع أذرع أخرى على بناء قريش فصارت سبعًا وعشرين ذراعًا ، وأوطأ الأرض ، وفتح فى ظهرها بابا آخر مقابل هذا الباب ، وكانت على ذلك حتى قتل ابن الزبير ، وظهر الحجاج

---

(١) ذراع القياس : ست قبضات معتدلات ، ويُسمى : ذراع العامة .. والذراع أُنثى فى اللغة ، أُجمع على هذا أهل اللغة ، وقد يذكرها البعض اعتباطًا وهم قلة نادرة ، لا يعتد بها ، وذكرت المعاجم العربية ومعظم الذين يُعْتَدُّ برأيهم ان الذراع موَنّثة فى اللغة ، وبذا قال ابنُ السّكيت ، والفرّاء ، وابن الأنبارى ، والزجّاج ، والأصمعى ، وغيرهم من أساطين اللغة .. وذكر الزجاج : أن التذكير شاذّ وغير مختار .

انظر : لسان العرب والمصباح وسائر المعاجم العربية ، مادة : ذرع .

وأخذ مكة ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يأمره أن يهدم ما كان ابن الزبير قد زاده من الحجر فى الكعبة ، ففعل ، وردها إلى قواعد قريش التى استقصرت فى بطن البيت ، وكبسها بما فضل من حجارتها ، وسد بابها الذى كان فى ظهرها ، ورفع بابها الذى فى وجهها إلى ما هو عليه اليوم » .

ذرع الكعبة من الخارج :

طولها فى السماء سبع وعشرون ذراعًا ، وذرع طول وجه الكعبة من ركن الحجر الأسود إلى الركن اليمانى خمس وعشرون ذراعًا ، وذرعها من الركن اليمانى إلى الركن الغربى خمس وعشرون ذراعًا وذرع شقها الذى فيه الحجر من الركن الشامى إلى الركن الغربى إحدى وعشرون ذراعًا ، وذرع جميع الكعبة أربعمائة وثمانى عشرة ذراعًا ، وذرع نفذ جدار الكعبة ذراعان ، والذراع أربع وعشرون أصبعًا ، وللكعبة سقفان يعلو أحدهما الآخر .

ذرع الكعبة من داخلها[1] :

قال أبو الوليد : ذرع طول الكعبة فى السماء من داخلها ثمانى عشر ذراعًا ونصف إلى السقف ممايلى باب الكعبة ، وطول الكعبة فى السماء إلى السقف الأعلى عشرون ذراعًا ، وفى سقف الكعبة

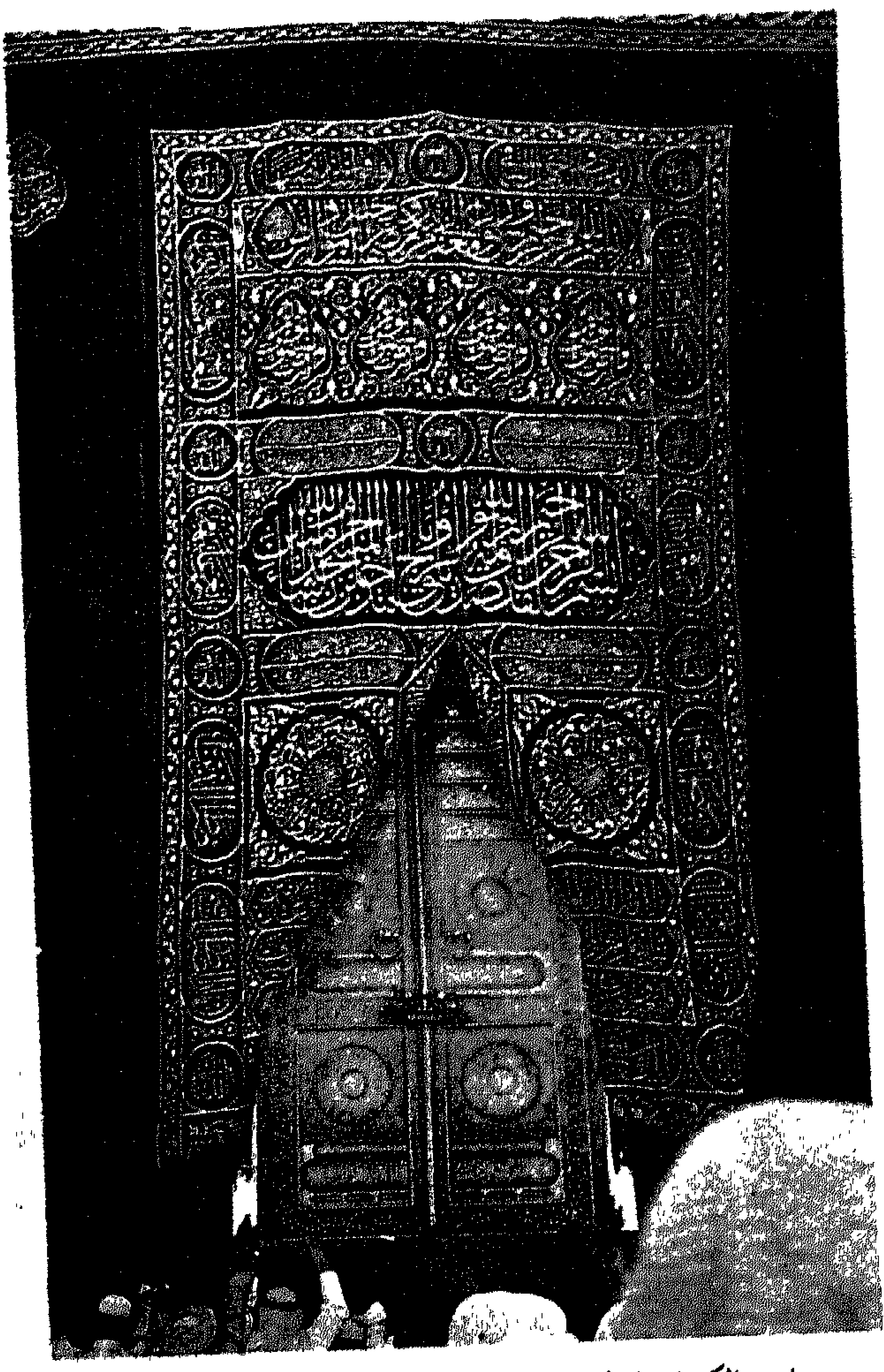
(١) انظر : تاريخ مكة للأزرقى ص ٢٩٠ وما بعدها .

أربع روازن نافذة من السقف الأعلى إلى السقف الأسفل للضوء ، وفوق سقف الكعبة تحجير ذرعه ذراعان ونصف ذراع وفيه حلق حديد تُشدُّ فيها ثياب الكعبة ، وكانت أرض سطح الكعبة مكسوة بالفسيفساء ، فأتلفها المطر فخلعها الحجبة بعد سنة المائتين وشيدوه بالمرمر المطبوخ والجص .

وفى وسط الجدار الذى يلى الحجْر بين الركنين الشامى والغربى ترى ميزاب الكعبة الذى يسكب ماء المطر من سقف الكعبة إلى بطن الحِجْر ، وذرع طول الميزاب أربع أذرع وسعته ثمانى أصابع فى ارتفاع مثلها ، وهو من صفائح الذهب داخله وخارجه ، وكان الذى جعل عليه الذهب الوليد بن عبد الملك ، وذرع داخل الكعبة من وجهها من الركن الذى فيه الحجر الأسود إلى الركن الشامى وفيه باب الكعبة تسع عشرة ذراعًا وعشر أصابع ، وذرع ما بين الركن الشامى إلى الركن الغربى ، وهو الشق الذى يلى الحجر خمس عشرة ذراعًا وثمانى عشرة أصبعًا ، وذرع ما بين الركن الغربى إلى اليمانى وهو ظهر الكعبة عشرون ذراعًا وست أصابع ، وفى الكعبة ثلاثة كراسى من خشب السَّاج ، طول كل كرسى فى السماء ذراع ونصف ، وعرض كل كرسى منها ذراع وثمانى أصابع فى مثلها ، والكراسى ملبسة بالذهب وفوق الذهب ديباج ، وتحت الكراسى رخام أحمر بقدر سعة

الكراسى ، وعلى الكرسى أساطين متفرقة ، وفوق الأساطين قطع من الساج مربعة منقوشة بالذهب والزخرف ، والأساطين ثلثها ملبس بصفائح الذهب . وبقيتها مموهة ، وعلى الكراسى ثلاثة جوايز من الساج أطرافها على الجدار الذى فيه باب الكعبة والجدار المقابل له من دبر الكعبة ، والجوايز منقوشة بالذهب والزخرف ، وسقف الكعبة منقوش بالذهب والزخرف ، ويدور تحت السقف أفريز بالذهب والزخرف أيضًا ، وتحت الإفريز طوق من فسيفساء . وبين الأساطين من المعاليق سبعة وعشرون معلاقًا ، وسلاسل المعاليق من الفضة ، فهذا ما كان عليه الأمر إلى سنة تسع وثلاثين ومائتين .

وإذا دخلت الكعبة وجدت على يمينك درجة يظهر عليها إلى سطح الكعبة ، وفى بطن الكعبة إزاران مداران من داخلها برخام أبيض وأحمر وأخضر ، وألواح ملبسة ذهبًا وفضة ، والإزاران على هيئة ألواح تم تثبيتها بالمسامير .. ويقول أبو الوليد : وأرض الكعبة مفروشة أيضًا برخام أبيض وأحمر وأخضر ، وفى موضع الرخامة البيضاء الثالثة فى الجهة التى يستقبل باب الكعبة منها ذُكِرَ أنَّ النبى ﷺ صَلَّى فى موضعها .. وفى عهد أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله تمت عدة إصلاحات تناولت أرضية وسقف الكعبة ومسجد الرسول ومسجد الخيف وجمرة العقبة وغيرها .



باب الكعبة المعظمة من الذهب الخالص يظهر من خلف كسوة الكعبة والكسوة مطرزة ومزخرفة بالآيات القرآنية المنسوجة من خيوط الذهب والفضة والحرير

صفة باب الكعبة :

وذرع طول باب الكعبة فى السماء ست أذرع وعشر أصابع ، وعرض ما بين جداريه ثلاث أذرع وثمانى عشرة أصبعًا ، والجدران وعتبة الباب العليا ونجاف الباب ملبس بصفائح الذهب المنقوشة .

وفى جدار عضادتى الباب أربع عشرة حلقة من حديد مموهة بالفضة ، متفرقة فى كل جدار منها سبع حلق يشد بها حواف الباب ، وعرض كل مصراع من مصراعى الباب ذراع وثمانى عشرة أصبعًا ، وفى المصراع الأيسر سكرة ، ووجه الباب ملبس بصفائح الذهب وظهره ملبس بصفائح الفضة ، وفى سنة ٥٥٢ هـ عمل الخليفة المقتفى العباسى بابا للكعبة مصفحًا بالذهب والفضة ، وفى سنة ٦٥٩ هـ عمل لها المظفّر صاحب اليمن بابا عليه صفائح من الفضة زنتها ستون رطلاً ، وفى سنة ٧٣٣ هـ عمل السلطان الناصر بن محمد قلاوون صاحب مصر بابا للكعبة حلاه بخمس وثلاثين ألف درهم ، وفى سنة ٨١٦ هـ وضع الملك المؤيد صاحب مصر بابا للكعبة محلى بالذهب ، وفى سنة ٩٦٤ هـ قلع هذا الباب بأمر السلطان سليمان خان حيث وضع مكانه بابا جديدًا حلاه بحلى كثيرة ، وبقى هذا الباب إلى سنة ١٠٤٥ هـ ،حيث أرسل السلطان مراد الرابع بابا صنعه فى أستانبول ، قال ابن الأزرق وهو الباب الموجود الآن ، وعن يحيى بن شبل عن أبى جعفر قال :

كان باب الكعبة على عهد إبراهيم وجرهم بالأرض حتى بنتها قريش . قال أبو حذيفة بن المغيرة : يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة ، حتى لا يدخل عليكم إلا بِسُلَّمٍ ، فإنه لا يدخل عليكم إلاّ من أردتم ، فإن جاء أحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط ، فكان نكالاً لمن رآه ، ففعلت قريش ذلك .

فى وصف الحطيم وحِجْر إسماعيل :

يحيط الحطيم بحجرْ إسماعيل وارتفاعه ١٣١ سم وعرضه ١٥٣سم ، وهو مغلف بالرخام ، ويعلو الحطيم ثلاثة أساطين تحمل ثلاثة فوانيس مضاءة ، والمسافة من منتصف الحطيم من الداخل إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمترًا ، وقد كان يدخل من الحِجْر حوالى ثلاثة أمتار فى بناء الخليل إبراهيم ، وبناء عبدالله بن الزبير ، ويقال إن سيدنا إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر مدفونان فى هذا المكان ، ويطل على الحجر من سقف الكعبة (الميزاب) ، والحجر من الكعبة يطاف حوله ولا يطاف بالكعبة من داخله .

وقد روى أن الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة وفد على عبد الملك ابن مروان فى خلافته ، فقال له عبد الملك : ما أظن أبا خبيب — يقصد ابن الزبير — سمع من عائشة ، ما كان يزعم أنه سمع منها فى أمْرِ الكعبة . قال الحارث : أنا سمعته منها . قال عبد الملك : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت : قال رسول الله ﷺ : (إن قومك استقصروا فى بناء البيت ، ولولا حداثة عهد قومك بالكفر

أعدت فيه ما تركوا منه ... فأراها قريبًا من سبع أذرع[1] وزاد الوليد بن عطاء فى الحديث : (وجعلت لها بابين موضوعين بالأرض بابًا شرقيًا يدخل منه الناس ، وبابًا غربيًا يخرج منه الناس وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : لا . قال : تعززًا لئلا يدخلها أحد إلا من أرادوا ، فكان الرجل إذا كرهوا أن يدخلها يدعونه يرتقى حتى إذا كاد يدخلها دفعوه فسقط)[2] . قال : قال عبد الملك : أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال : قلت نعم . فنكث عبد الملك بعصاه ساعة ثم قال : لوددت أنى تركته وما تحمَّل (يعنى ابن الزبير) . وفى رواية أن عائشة قالت : كنت أحب أن أصلى فى البيت ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدى فأدخلنى الحجر وقال : صلى فى الحجر إذا أردْتِ دخول البيت فإنما هو من البيت .

وعن المبارك بن حسان قال : رأيت عمر بن عبد العزيز فى الحجر ، فسمعته يقول : شكا إسماعيل عليه السلام إلى ربه حَرَّ مكّة . فأوحى الله تعالى إليه : إنى أفتح لك بابا من الجنة فى الحِجْر ،يجرى عليك منه الروح إلى يوم القيامة ، قال خالد : فيرون أن ذلك الموضع ما بين الميزاب إلى الباب الغربى فيه قبره . (أى قبر إسماعيل عليه السلام) .

وعن محمد بن يحيى عن أبيه ،أن أمير المؤمنين المنصور أبا جعفر

---

(١) انظر : تاريخ مكة للأزرقى ص ٢١١ .

(٢) المصدر السابق – ص ٢٠٦ .

حج ، وزياد بن عبيد الله الحارثى يومئذ أمير مكة ، فطاف أبو جعفر ثم دعا زيادًا فقال : إنى رأيت الحجر حجارته بادية ، فلا أصبحنّ حتى يستر جدار الحجر بالرخام ، ففعل ،ثم جدد المهدى بعد ذلك رخامه ، ثم بطن جعفر بن على بن سليمان أمير مكة بطن الحجر بالرخام ، فى العام الذى جدد فيه المهدى المسجد وزاد فيه زيادته الأولى ، وشرع أبواب المسجد على المسعى ، ثم توالت التجديدات فيه .. وقيل : كان عبد المطلب جد النبى له مفرش فى الحجر لا يجلس عليه غيره ، فجاء رسول الله ﷺ وهو غلام لم يدرج ليجلس على المفرش ، فجذبوه ، فبكى ، فسمعه عبد المطلب ، وذلك بعد ما كفَّ بصره ، فقال : ما لابنى يبكى ؟ قالوا : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه . فقال عبد المطلب : دعوا ابنى فإنه يحس بشرف ، وإنى لأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربى قط . قيل : والدعاء تحت الميزاب مجاب ، فيه صلاة الأخيار ، كما أن زمزم شراب الأبرار .

كسوة الكعبة المعظمة :

كان أول من كسا الكعبة (تُبَّع أسعد الحميرى) ملك اليمن ، بعد أن أرى فى منامه أنه يكسو الكعبة ، وقد كساها بثياب حبرة من عصب اليمن[1] ثم كساها خلفاؤه بالقباطى المصرية ، وكانت

---

(١) انظر : تاريخ مكة للأزرقى – ص ٢٤٩ .

هذه القباطى كساؤها على عهد رسول الله ﷺ ، ثم كسيت البرود اليمانية .

وقد كسا الكعبة من الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبدالله بن الزبير ، ثم كساها معاوية بن أبى سفيان بالديباج .

وذكر الأزرقى فى كتابه تاريخ مكة : أن الكعبة كانت تكسى مرتين كل عام ، حيث تكسى بالديباج فى موسم الحج ، وتكسى القباطى المصنوعة بمصر فى رمضان .

وقد كانت الكعبة فى خلافة العباسيين تكسى بالحرير الأسود ، فلما ضعفت الدولة العباسية كان ولاة مصر وولاة اليمن يتناوبون كسوة الكعبة الشريفة ، ثم إن ولاة مصر انفردوا بهذا الشرف حتى كان عام ١٩٦٢ م ، فقام ملك المملكة العربية السعودية بكسوتها ، كما كانت تكسى بالحرير الأسود السميك المطرز بخيوط الذهب والفضة والمحلى بكثير من الآيات القرآنية ، خاصة غطاء باب الكعبة .

الحَجَر الأسود - الركن :

ورد عن وهب بن منبه ، أن الحجر أُنزل من الجنة مع الخيمة التى أنزلها الله لأبينا آدم ، عزاء له على ندمه وبكائه حين أُنزل من الجنة إلى الأرض ، وكان الحجر ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة . فلما توفى آدم رفعت الخيمة ومعها الحَجَر ، فبنى شيث بن آدم

الكعبة مكان الخيمة بالحَجَر والطين ، وقد بقيت إلى أن هدمها الطوفان فى عهد نوح عليه السلام .

فلما رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، جاءه جبريل بهذا الحجر ، فوضعه إبراهيم عليه السلام فى مكانه ، وطول الحجر حوالى ذراع .

وعن ابن عباس قال : أُنزل الركن – أى الحجر الأسود – من الجنة ، وهو يتلألأ من شدة بياضه ، وليس فى الأرض من الجنة غيره ، وكان أبيض كالمهاة ، ولولا ما أُصابه من رجس الجاهلية ، مامسّه ذو عاهة إلا شُفِىَ بإذن الله[1] .

وروى ابن خزيمة قال : الحجر الأسود ياقوته بيضاء من يواقيت الجنة ، وإنما سوّدته خطايا المشركين ، يبعث يوم القيامة مثل أُحُدٍ ، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا .

وعن عبدالله بن عمر قال : أُشهد بالله أن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ، لولا أن الله تعالى أطفأ نورهما ؛ لأضاء نورهما ما بين السماء والأرض .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : لولا أن الحجر تمسّه الحائض

(١) انظر ماجاء فى فضل الركن الأسود فى تاريخ مكة للأزرقى – ص ٣٢٢ وما بعدها .

وهى لا تشعر ، والجُنُب وهو لا يشعر ، ما مسه أجذم ولا أبرص إلا برأ[1] .

وعن ابن نبيه الحجّى عن أمه أنها حدثته ، أن أباها حدثها ، أنه رأى الحجر قبل الحريق وهو أبيض يتلألأ يتراءى الإنسان فيه وجهه .

وعن عثمان قال : أخبرنى زهير أنه بلغه أن الحجر من رضراض[2] ياقوت الجنة ، كان أبيض يتلألأ فسوّده أرجاس المشركين ، وسيعود إلى ما كان عليه ، وهو يوم القيامة مثل جبل أبى قبيس فى العظم ، له عينان ولسان وشفتان ، يشهد لمن استلمه بحق ، ويشهدُ على من استلمه بغير حق . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الركن يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها خلقه ، والذى نفس ابن عباس بيده ؛ ما من امرئ مسلم يسأل الله عز وجل شيئًا عنده إلا أعطاه الله إياه ، وعن وهب بن منبه أن ابن عباس أخبره أن النبى ﷺ قال لعائشة ، وهى تطوف معه بالكعبة حين استلما الركن : (لولا ما طبع على هذا الحجر يا عائشة من أرجاس الجاهلية وأنجاسها إذًا لا ستشفى به من كل عاهة ، وإذًا لألفى اليوم كهيئته يوم أنزله الله عز وجل ، وليعيدنه إلى ما خلقه أول

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٨ .

(٢) الرضراض : صغار الحصى .

مرة ، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، ولكن الله سبحانه وتعالى غيرّه بمعصية العاصين ، وستر زينته عن الظلمة والأثمة ، لأنه لا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شىء كان بدؤه من الجنة)[1] .

وعن ابن عمر : « أن النبى ﷺ كان لا يدع الركن اليمانى والركن الأسود أن يستلمهما ، فى كل طواف أتى عليهما ، وكان لا يستلم الركنين الآخرين » .. وأن رسول الله ﷺ طاف فى حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجنه ، يكره أن يضرب عنه الناس .

وعن أبى يعقوب العبدى قال : سمعت رجلاً من خزاعة ، وكان أميرًا على مكة ، فى وقت منصرف الحج عن مكة يقول : إن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب : « يا عمر ، إنك رجل قوى ، وإنك تؤذى الضعفاء ، فإذا رأيت خلوة فاستلمه ، وإلاَّ فكبرِّ وامضْ » .

وعن هشام بن عروة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يستلم الركن إذا وجد فجْوةً ، فإذا اشتد الزّحام كبرّ كلما حاذاه .

وعن ابن جريج ، قال عطاء : إنه سمع ابن عباس يقول : إذا وجدت على الركن زحامًا فلا تُؤْذِ ولا تؤذى ، وإن رأيت

(١) انظر : تاريخ مكة – ص ٣٢٢ و ٣٢٣ .

منه خلوة فقبّله أو استلمه وإلاّ فامض[1] . والنساء لا يُزَاحِمْن من باب أوْلى .

وعن ابن جريج قال : أخبرنى عطاء قال : قالت امرأة وهى تطوف مع عائشة رضى الله عنها : انطلقى فاستلمى يا أم المؤمنين . فجذبتها وقالت : انطلقى عنّا ، وأبت أن تستلم .

وعن مجاهد قال : كان رسول الله ﷺ يستلم الركن اليمانى ويضع خدّه عليه .

وعن عبدالله بن الزبير عن أبيه ؛ أنه قال له وهو يطوف به : أدْننى من الركن اليمانى ، فإنه كان يقال إنه باب من أبواب الجنة .

وعن عطاء قال : قيل : يا رسول الله ، رأيناك تكثر استلام الركن اليمانى ، فقال : ما أتيت عليه قط إلا وجبريل قائم عنده يستغفر لمن استلمه[2] .

وعن مجاهد قال : من وضع يده على الركن اليمانى ثم دعا استجيب له . وعن مجاهد قال : بلغنى أن بين الركن اليمانى والركن الأسود سبعين ألف ملك لا يفارقونه ، هم هنالك منذ خلق الله البيت .

أما ما يقال عند استلاَم الركن الأسود ، فقد قيل : إن عمر

(١) المصدر السابق – ص ٣٣٤ .

(٢) انظر المصدر السابق – ص ٣٣٨ .

ابن الخطاب كان يقول إذا كبّر لاستلام الحجر : بسم الله والله أكبر على ما هدانا الله . لا إله إلا الله وحده لا شريك له . آمنت بالله وكفرت بالطاغوت وباللات والعُزّى وما يدعى من دون الله ﴿إنَّ وليِّ الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ (الأعراف : ١٩٦) .

وقال عثمان : بلغنى أنه يستحب أن يقال عند استلام الركن : بسم الله والله أكبر ، اللّهم إيمانًا بك وتصديقًا بما جاء به محمد ﷺ .

وكان النبى ﷺ يقول فيما بين الركنين (اليمانى والأسود) : ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ . (البقرة : ٢٠١) .

وعن سعيد بن المسيب أن النبى ﷺ إذا مرّ بالركن اليمانى قال : اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والذل والفقر ومواقف الخزى فى الدنيا والآخرة ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾[١] .

وعن ابن الفرافصة أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كان إذا مرّ بالركن اليمانى قال : بسم الله والله أكبر ، والسلام على رسول الله ﷺ ورحمة الله وبركاته ، اللهم إنى أعوذ بك من الكفر

---

(١) انظر : تاريخ مكة — ص ٣٤٠ .

والفقر والذل ومواقف الخزى فى الدنيا والآخرة ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾[1] .

وعن عثمان أنه قال : بلغنى أن رجلاً كان على عهد رسول الله ﷺ يقول بين الركن اليمانى والركن الأسود ثلاث مرات : اللهم أنت الله وأنت الرحمن لا إله غيرك ، وأنت الرب لا رب غيرك ، وأنت القائم الدائم الذى لا تغفل ، وأنت الذى خلقت ما يُرى وما لايُرى ، وأنت علمت كل شىء بغيروْ تعليم ، فسمع ذلك النبى ﷺ من صنيعه فقال : إن كان قاله والله أعلم ، فبشروه بالجنة ، وأخبروه أنه فى قومه مثل صاحبه ياسين فى قومه .

وعن سالم بن عبدالله عن أبيه قال : على الركن اليمانى ملكان يؤمنان على دعاء من يمر بهما ، وإن على الأسود ما لا يحصى . (أى من الملائكة) .

وأما عن رفع الحجر الأسود :

فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : أكثروا استلام هذا الحجر فإنكم توشكون أن تفقدوه ، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذا أصبحوا وقد فقدوه ، إن الله عز وجل لا يترك شيئا من الجنة فى الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة[2] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر ماجاء فى رفع الركن الأسود فى المصدر السابق ص ٣٤٢ وما بعدها .

وقال عثمان : بلغنى عن النبى ﷺ أنه قال : أول ما يرفع : الركن ، والقرآن ،ورؤيا النبى ﷺ فى المنام .

ما حول الحجر الأسود من الفضة وما أصابه :

كان ابن الزبير أول من ربط الركن الأسود بالفضة لما اصابه الحريق ، ثم كانت الفضة قد رقّت - وتزعزعت وتقلقلت حول الحجر الأسود حتى خافوا على الركن أن ينقض ، فلما اعتمر أمير المؤمنين هارون الرشيد وجاور فى سنة تسع وثمانين ومائة ؛ أمر بالحجارة التى بينها الحجر الأسود فثقبت بالماس من فوقها وتحتها ثم أفرغ فيها الفضة - وهى ليست الفضة التى عليه اليوم - وطول الحجر الأسود ذراع وأربع أصابع ، وما بين الحجر إلى الأرض ذراعان وثلثا ذارع ، وما بين الركن والمقام ثمانٍ وعشرون ذراعًا ، وأما دخول الفضة التى حول الحجر الأسود ودخول الحجر الأسود فى الجدر عن وجه حد الجدر فأصبعان ونصف .

وقد أزيل الحجر الأسود عن مكانه أكثر من مرة من جرهم وإياد والعمالقة وخزاعة ، وفى عام ٣١٧ هـ أزاله القرامطة من مكانه ، حيث قلعوه وذهبوا به إلى البحرين ليضعوه فى بيت ضرار أقاموه فى هَجَر ، وبقى لديهم حتى عام ٣٣٩ هـ حيث أعاده الخليفة العباسى المطيع لله إلى مكانه ، وصنع له طوقان من فضة ، فطوقوا الحجر بهما وأحكموا بناءه .

– وفى سنة ٣٦٣ هـ دخل الحرم وقت القيلولة رجل رومى متنكرًا ، فحاول قلع الحجر ، فابتدره يمانى بخنجر فقتله .

– وفى سنة ٤١٤ هـ تقدم رجل من الباطنية فطعن الحجر بلبوس ، فقتله الناس فى الحال .

– وفى أواخر القرن العاشر جاء رجل أعجمى بلبوس فى يده فضرب به الحجر الأسود ، وكان الأمير ناصر جاوش حاضرا فوجأ الأعجمى بالخنجر فقتله .

– وفى آخر المحرم سنة ١٣٥١ هـ جاء أفغانى فسرق قطعة من الحجر الأسود ، وسرق أيضا قطعة من أستار الكعبة ، وقطعتى فضة من المدرج الفضى ، فأعدم ، واعيدت القطعة المسروقة يوم ٢٨ ربيع الثانى من العام نفسه ، ووضعت القطعة فى مكانها بعد معالجتها ، وضعها بيده الملك عبد العزيز آل سعود .

أما ما يدور حول الحجر الأسود من أطواق ، فإن السلطان عبد المجيد العثمانى أرسل سنة ١٢٦٨ هـ طوقًا من الذهب زنته عشر أقّات ، ركب على الحجر بعد إزالة ما حوله من فضة ، ولم يعلم أن الحجر طوّق بالذهب غير هذه المرة .

ويقول الحضراوى : إن هذا الذهب كان من كنز وجد فى شعب أجياد بمكة المكرمة . وفى سنة ١٢٨١ هـ أرسل السلطان عبد العزيز طوقًا من فضة فوضع مكان الطوق الذى أرسله السلطان

عبد المجيد ، وفى سنة ١٣٣١ هـ غيرت الفضة المحاطة بالحجر الأسود فى خلافة السلطان محمد رشاد العثمانى[١] .

وقد كان عبدالله بن الزبير أول من كان يستلم الحجر قبل الصلاة وبعدها ، وقد استحسن الأئمة فعل ذلك بعده .

مقام إبراهيم :

قال تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا﴾ (٩٦/ ٩٧ – آل عمران) .

وعن مجاهد فى تفسير قول الله تعالى : ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ قال : أثر قدميه فى المقام .

وعن مجاهد قال : وقف إبراهيم عليه السلام على هذا المقام فقال : يا أيها الناس أجيبوا ربكم .

فقالوا : لبيك اللّهم لبيك . قال : فمن حج فهو ممن استجاب لإبراهيم عليه السلام .

وفى قوله تعالى : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (آية ١٢٥/ البقرة) .

قال قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده .

---

(١) انظر : تاريخ مكة ص ٣٤٦ – الهامش رقم (٤) .



مقام إبراهيم

وعن أبى سعيد الخدرى : أن إبراهيم عليه السلام بعد أن دعا الناس إلى حج البيت ؛ أُمر بالمقام فوضعه قبلة ، فكان يصلى إليه مستقبلاً باب الكعبة . ثم كان رسول الله ﷺ يفعل ما فعل إبراهيم وإسماعيل ، يصلى إليه مستقبلا باب الكعبة ، إلى أن أمر بالصلاة إلى بيت المقدس ، فصلى إليه قبل الهجرة وبعدها ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا ، إلى أن أحب الله أن يصرفه إلى القبلة التى ارتضاها ، فصلى إلى الميزاب وهو بالمدينة ، ثم صلى إلى المقام ما أقام بمكة .

وعن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ (١٢٧/ البقرة) .

أن إسماعيل كان يحمل له الحجارة على رقبته ، ويبنى الشيخ إبراهيم ، فلما ارتفع البناء وشقّ على الشيخ تناوله ؛ قربٌ له إسماعيل هذا الحجر ، فكان يقوم عليه ويبنى ، ويحوله فى نواحى البيت حتى انتهى إلى وجه البيت ، يقول ابن عباس : فذلك مقام إبراهيم وقيامه عليه .

وفى خلافة عمر بن الخطاب جاء سيل ، فاقتلع المقام من مكانه ، حتى وجدوه بأسفل مكة ، فأتوا به ، وربط فى أُستار الكعبة فى وجهها ، وكتبوا فى ذلك إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى المدينة ، فأتى عمر مكة معتمرًا ، وسأل فى الناس عن أحد

عنده علم صحيح بمكان المقام ، فقال المطلب بن أبى وداعة السهمى : أنا يا أمير المؤمنين عندى ذلك ، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا ، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ، ومن موضعه إلى باب الحجر ، ومن موضعه إلى زمزم . فلما تأكد لعمر قوله ، أمر ببناء ربضة تحت المقام ، فهو فى مكانه هذا إلى اليوم .

والمقام مربع .. سعة أعلاه أربع عشرة أصبعًا فى مثلها ، وسعة أسفله مثل ذلك ، وبذلك يكون ذرع (أى محيط المقام) قدر ذراع ، ويوجد فى أعلاه وفى أسفله طوق من الذهب ، وهو موضوع فى حوض من خشب الساج مربع ، وحوله رصاص ملبس به ، وفى الحوض من المقام أصبعان ، وهو مربوط للأرض بسلسلتين وقفلين ، وهو محاط بأسطوانة من الكريستال المدعمة بالنحاس المذهب .

التوسعات والتجديدات :

شهد الحرم فى العقدين الأخيرين توسعات وتجديدات عظيمة لم يشهدها الحرم ولا غيره من الآثار الدينية عبر التاريخ كله مما زاده بهاء ورواء واتساعًا وفخامة ، وكفل لحجاجه كل سبل الراحة والأمان ، ولاتزال التوسعات والتجديدات تجرى حتى تاريخ كتابة هذه السطور .

فالتوسعات الحالية بالحرم المكى تستهدف رفع الطاقة الاستيعابية

له إلى أقصى حد ممكن ، إذ تبلغ مساحة التوسعة نحو ٧٦ ألف متر مربع ، لتصبح مساحة الحرم بعد التوسعة ٣٢٨ ألف متر مربع ، بما يجعل الحرم المكى يتسع لمليون مصلٍّ تقريبًا فى الفترات الذروة كالحج والعمرة .

ويدخل فى إطار هذه التوسعة إنشاء أربعة جسور للمسعى ، وتجديد ٥٤ بابا ، وزيادة عدد المآذن إلى ٩ مآذن بعد أن كانت أربعا فقط ، وإنشاء جسرين إضافيين بعد ذلك للجسور الأربعة للمسعى ، وإنشاء دار لتبريد ماء زمزم ، وتكييف هواء الطابق الأرضى ، وكسوة الأرضيات كلها برخام عازل للحرارة ، وتبلغ إجمالى تكاليف هذه التوسعات والتجديدات نحو ٩٨١٨ مليون ريال سعودى .

* * *

الباب الثالث

- المدينة المنورة .
- مسجد قباء .
- المسجد النبوي الشريف .

المدينة المنورة

« المدينة المنورة قبة السلام ، ودار الإيمان ، وأرض الهجرة ، ومتبوأ الحلال والحرام » . بهذه الكلمات الطيبة وصفها صاحبها عليه أفضل الصلاة وأتم السلام .

وقال ﷺ : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » .

وقال ﷺ : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » .

وقال ﷺ : « من زارنى فى المدينة محتسبًا كنت له شهيدًا وشفيعًا يوم القيامة » .

وقال ﷺ : « من استطاع أن يموت فى المدينة فليمت ، فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت شفيعًا له يوم القيامة » .

والمدينة كلها حِمىً لا يقطع نباتها ولا يصاد صيدها لمسافة اثنى عشر ميلاً حولها ، قال ﷺ : « إن إبراهيم حَرَّم مكَّة ، وإنى حرَّمت المدينة ما بين لابتيها ، لا يقطع عضاهها[1] ، ولا يصاد صيدها » .

---

(١) أى : شجرها .



منظر المدينة المنورة والمسجد النبوى الشريف قبل التوسعات

والفضل كل الفضل والشرف كل الشرف للمدينة المنورة ، ولصاحبها ﷺ ، ولأهلها وساكنيها ، فهى أشرف مكان فى الدنيا بعد مكة ، وهى مهبط الوحى ، وهى محط رحال الكمل ، ولقد كان الإمام مالك رضى الله عنه يستحى أن يركب دابة فى المدينة لفضلها وهو يقول : « أستحى من الله عز وجل أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابتى » .

وفى فضل المدينة المنورة ذكر السمهودى[1] ما لا يكاد يحصى ، من أوجه الفضل ، نذكر لك ما حضرنا منها الآن ، وإن شاركتها مكة فى بعضه ، فمن ذلك :

١ – أنه ﷺ خلق من طينتها ، وكذا أبو بكر وعمر وأكثر الصحابة والسلف ممن دفن بها – رضى الله عنهم أجمعين .

٢ – اشتمالها على البقعة التى تشتمل جسد رسول الله ﷺ والتى انعقد الإجماع على تفضيلها على سائر البقاع .

٣ – دفن أفضل الأئمة بها ، والكثير من الصحابة الذين هم خير القرون .

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى – الشيخ نور الدين على بن أحمد السمهودى نزيل المدينة المنورة – وعالمها ومفتيها ومدرسها ومؤرخها ، الشافعى ، المتوفى بها سنة ٩١١ هـ – تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد – الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م – بالمدينة المنورة .

٤ - أنها محفوفة بأفضل الشهداء الذين بذلوا نفوسهم فى ذات الله بين يدى نبيه ﷺ ، فكان شهيدًا عليهم .

٥ - أن الله تعالى اختارها دون غيرها لتكون دارًا لنصرة دينه وقرارًا لأفضل خلقه .

٦ - أن سائر البلاد افتتحت بالسيف ، وافتتحت هى بالقرآن .

٧ - أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام حتى مكة المشرفة وجعلها مظهر دينه الحنيف .

٨ - ما ذكره القاضى عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة ، ووجوب سكناها لنصرة النبى ﷺ ، ومواساته بالأفضل ، والجمهور على منع من هاجر إليها قبل الفتح من الإقامة بمكة بعد الفتح ، ورخص له بالإقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه .

٩ - أن أشراف هذه الأمة يبعثون منها يوم القيامة .

١٠ - تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وأن تربتها مؤمنة ، وأنه لا مانع من أن الله سبحانه وتعالى خلق ذلك فيها .

١١ - إضافتها إلى الله تعالى فى قوله عز وجل : ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ (النساء : ٩٧) . وقد ذكرت مكة على شرفها غير مضافة إلى الله تعالى فى قوله عز وجل : ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض﴾ (الأنفال : ٢٦) .

١٢ - إضافة الله عز وجل إياها إلى رسوله بلفظ البيت في قوله سبحانه :﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ (الأنفال :٥) .

١٣ - إقسام الله عز وجل بها في قوله : ﴿لا أقسم بهذا البلد ﴾ (البلد : ١) .

١٤ - إن الله عز وجل بدأ بها الكلام في قوله : ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ ، فمدخل صدق هي المدينة المنورة ، ومخرد صدق هي مكة المكرمة ، مع أن موافقة الواقع كانت تقتضي البداءة بالمخرج ، فإن قيل : التقديم للاهتمام قلنا : في الاهتمام به كفاية .

١٥ - تسميتها في التوراة (المرحومة) ، لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، ومحل تنزيل الرحمة .

١٦ - وسماها النبي ﷺ (الحبيبة) لحبه لها عليه الصلاة والسلام ، ولقوله : « اللّهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » .

١٧ - دعاؤه ﷺ أن يجعل الله له بها قرارًا ورزقًا حسنًا .

١٨ - تحريكه ﷺ دابته إذا أبصر مشارفها عند قدومه إليها ، وطرحه رداءه عن منكبيه وقوله : « هذه أرواح طيبة » .

١٩ - اهتمامه ﷺ بأمر الدعاء لها بالبركة .

٢٠ – جعلها حرما إكراما للمصطفى ﷺ .

٢١ – تأسيس مسجدها الشريف على يده ﷺ ، وعمله فيه بنفسه ومعه خير الأمة : المهاجرون الأولون والأنصار المقدمون .

٢٢ – اختصاصها بمسجد قباء الذى أُنزل فيه الله عز وجل قوله : ﴿لمسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ (التوبة : ١٠٨) . وجعل صلاة ركعتين فيه بأجر عمرة .

٢٣ – كون ما بين بيته ومنبره روضه من رياض الجنة ، وقال بعضهم : إن ذلك يعم المسجد النبوى كله ، فهو المسجد الذى لا تعرف بقعة فى الأرض من الجنة غيره .

٢٤ – كون منبره الشريف على نهر من أنهر الجنة ، وأن قوائمه رواتب فى الجنة ، وفى رواية : « ومنبرى على حوضى » .

٢٥ – كون الصلاة في المسجد النبوى بألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام .

٢٦ – حديث « من صلى في مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبرئ من النفاق » . رواه الطبرانى فى الأوسط .

٢٧ – ما جاء فى أن من خرج على طهر لا يريد إلا الصلاة

فيه كان بمنزلة حجة ، وأن الخارج إليه من حين يخرج من منزله فَرِجْل تكتب حسنة ورجل تحط خطيئة .

٢٨ – حديث : « صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها » ، فسائر أفعال البر كذلك ، كما قيل به فى مكة .

٢٩ – ذهب بعض العلماء إلى أن الصيام بالمدينة أفضل من الصلاة ، والصلاة بمكة أفضل من الصيام ، ويؤخذ من هذه العلة أن كل عبادة شرعت بالمدينة فهى بها أفضل منها بمكة .

٣٠ – حديث : « لا يسمع النداء فى مسجدى هذا ثم يخرج منه – إلا لحاجة – ثم لا يرجع إليه إلا منافق » .

٣١ – كون التعلم والتعليم بمسجدها مؤكد .

٣٢ – اختصاص مسجدها بمزيد الأدب وخفض الصوت ، لكون حضرة سيد المرسلين ، واختصاصه عند بعضهم بمنع أكل الثوم والبصل لاختصاصه بملائكة الوحى .

٣٣ – أنه لا يجتهد فى مكان محرابه يمنة أو يسرة ، لأنه صواب قطعا ، بخلاف محاريب المسلمين .

٣٤ – أن أُحُد من جبالها ، والحديث : « أحد على ترعة من ترع الجنة » . والحديث فى أحد أيضًا : « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

٣٥ – أن بطحان من جبالها . والحديث : « إن بطحان على ترعة من ترع الجنة » .

٣٦ – أن من وديانها وادى العقيق ، وهو الموصوف بالوادى المبارك ، وأن النبى ﷺ يحبه ، وفى رواية (يحبنا ونحبه) .

٣٧ – حث النبى ﷺ على الإقامة بها .

٣٨ – حث النبى ﷺ على الموت بها ، ووعده لمن مات بها بالشفاعة أو الشهادة أو هما معًا .

٣٩ – حرصه ﷺ على الموت بها ، الحديث : « المدينة مهاجرى ، ومنها مبعثى ، وبها قبرى » .

٤٠ – أن أهلها أول من يشفع لهم ، وأنهم المختصون بمزيد الشفاعة والإكرام .

٤١ – أن من مات بها يبعث من الآمنين .

٤٢ – أنه يبعث من بقيعها سبعون ألفًا على صورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب ، ومثله فى مقبرة بنى سلمة ، وتوكل الملائكة بمقبرة البقيع كلما امتلأت أخذوا بأطرافها فكفوها فى الجنة .

٤٣ – أن أهلها يبعثون من قبورهم قبل سائر الناس .

٤٤ – شهادة النبى ﷺ – أو شفاعته – لمن صبر على لأوائها وشدتها .

٤٥ – وجوب شفاعة النبى ﷺ لمن زاره بها .

٤٦ – استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف – ويقال : إنه مستجاب عند الأسطوان المخلق ، وعند المنبر ، وفى زاوية دار عقيل بالبقيع ، وبمسجد الفتح بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء . كذا استجابة الدعاء بمسجد الإجابة ، ومسجد السُّقيا ، وبالمصلى عند القدوم ، وعند بركة السوق فى يوم العيد ، وعند أحجار الزيت ، وبالسوق .

٤٧ – كونها تنفى خبثها .

٤٨ – كونها تنفى الذنوبْ كما تنفى النار خبث الفضة .

٤٩ – الوعيد الشديد لمن ظلم أهلها أو أخافهم .

٥٠ – أن من أرادها وأهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء ، وفى رواية أذابه الله فى النار ، ويؤخذ من ترتيب الوعيد فى الإرادة مساواة المدينة لمكة فى هذا .

٥١ – أن الصغيرة بها تكون كبيرة ، لأنها تكون بحضرة أشرف المرسلين ، قال بعض السلف : إياك والمعصية ، فإن عصيت ولابد فليكن فى مواضع الفجور لا فى مواضع الأجور ، لئلا يتضاعف عليك الوزر أو تعجل لك العقوبة .

٥٢ – الوعيد لمن لم يكرم أهلها ، وأن إكرامهم وحفظهم حق على الأمة ، وأنه ﷺ شفيع – أو شهيد – لمن حفظهم فيه .

٥٣ – حديث : « من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي » .

٥٤ – حديث : « من غاب من المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مشرب جفوة » ، وأنه (لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى فيها خيرًا منه) .قال الطبرى : وهو مخصوص بالمستوطن .

٥٥ – إكرام الله عز وجل لها بنقل وبائها وتحويل حماها ، ففى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها : قدمنا المدينة وهى وبيئة ، فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال : « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا فى صاعها ومدّها ، وحوّل حُماها إلى الجحفة »[1] .

٥٦ – الاستشفاء بترابها وثمارها ، وأن غبارها شفاء من الجُذام ، وتمرها يحفظ من الضرر .

٥٧ – عصمة الله عز وجل لها من الطاعون .

٥٨ – عصمة الله عز وجل لها من الدجال . قيل : وخروج

(١) الجُحْفَة : موضع بين مكة والمدينة ، قريبٌ من « رابغ » .

الرجل الذى خير الناس إليه منها ، وقوله له : اشهد أنك الدَّجَّال ، وأنه لا يسلط عليه بآخرة الأمر ، وبهذا تتميز على مكة .

٥٩ – ما فى حديث الطبرى من قوله ﷺ : « وَحَقٌ على كلِّ مسلمٍ زيارتها » .

٦٠ – سماعه ﷺ سلام من سلم عليه ، وصلاة من صلى عليه عند قبره الشريف ، وردّه السلام عليه .

٦١ – اختصاصها بملك الإيمان والحياء ، وحديث : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[1] .

٦٢ – حفظها بالملائكة وحراستهم لها .

٦٣ – كونها أول أرض اتخذ بها مسجد لعامة المسلمين فى هذه الأمة .

٦٤ – كون مسجدها آخر مساجد الأنبياء ، وآخر المساجد التى تشد إليها الرحال ، وكونه أحق المساجد التى تزار .

٦٥ – كثرة المساجد والمشاهد والآثار بها ، بل البركة عامة منبثة بها ، ولهذا قيل لمالك : أيها أحب إليك : المقام هنا – يعنى المدينة – أو بمكة ؟ فقال : ها هنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟ .

---

(١) أرَزَ إلى المكان : لجأ إليه .

٦٦ – ما يوجد بها من رائحة الطيب الزكية ، وهى طيبة ، عيشها وريحها .

٦٧ – استحقاق من عابَ تربتها للتعزيز ، فقد أُفتى مالك فيمن قال : (تربة المدينة رديئة) بأن يضرب ثلاثين درَّة ، وأمر بحبسه وكان له قَدْر ، وقال : ما أُحوجه إلى ضرب عنقه ، تربة دفن فيها النبى ﷺ يزعم أُنها غير طيبة ؟ !

٦٨ – الوعيد الشديد لمن حلف يمينا فاجرة عند منبرها .

٦٩ – استحباب الدخول لها مَن طريق ، والرجوع من طريق أخرى ، وفى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشجرة ويدخل من طريق المعرس .

٧٠ – استحباب الاغتسال والتطيب لدخولها .

٧١ – استحباب الدعاء والطلب من الله الموت بها .

٧٢ – أنها دار إسلام أبدا ، لحديث : « إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدى هذا » .

٧٣ – أنها آخر قرى الإسلام خرابا ، رواه الترمذى وقال حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ : « آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة » .

٧٤ – تخصيص أهلها بأبعد المواقيت وأفضلها تعظيمًا لأجورهم .

٧٥ – ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة ، وقد سئل الإمام أحمد عمن يبدأ بالمدينة قبل مكة فقال : إذا أردت مكة فابدأ بمكة ، فإذا قضيت حجك فامرر بالمدينة . ثم روى أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يبدءون بالمدينة إذا حَجوا ، يقولون : نبدأ من حيث أحرم رسول الله ﷺ . نقول وهذا أفضل لأهل الشام ، لأن المدينة فى طريقهم .

٧٦ – اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستة وثلاثين ركعة ، على المشهور عند الشافعية ، وليس لغير أهل المدينة ذلك ، لشرفهم بمهاجر رسول الله ﷺ وقبره . ونقل الطبرى : قال الشافعى : لا يجوز لغير أهل المدينة أن يماروا أهل مكة ولا ينافسوهم ، والقيام بهذا العدد باق إلى اليوم فى أهل المدينة ، إلا أنهم يقومون بعشرين ركعة عقب العشاء ، ثم يأتون آخر الليل فيقومون بست عشرة ركعة .

٧٧ – زيادة البركة بها على مكة المشرفة ذاتها ، ففى الحديث : « اللّهم اجعل فى المدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة » . وفى بعض الأحاديث أن المدعو به لها ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، وفى بعضها : « مثلما جعلت بمكة من البركة ومع البركة بركتين » .

٧٨ – تحريم نقل أحجار المدينة وأحجار حرمها وترابه ، وجوازه فقط للتداوى .

٧٩ - حديث : « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدوا عالمًا أعلم من عالم المدينة » . قيل : مالك ، وقيل : عبدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، وقيل : سعيد بن المسيب ، وقيل : سفيان الثورى .

٨٠ - قيام مسجدها مقام المسجد الأقصى ، كالمسجد الحرام ، فلو نذر الصلاة أو الاعتكاف فى الأقصى ، فإن الأصح لزومه ، ومسجد المدينة يجزئه ، لزيادة فضله على الأقصى ، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يجزئه فعل ذلك بالأقصى ، ويجزئه بالمسجد الحرام .

٨١ - قال ابن المنذر : إذا نذر الرجل أن يمشى إلى مسجد الرسول والمسجد الحرام لزمه الوفاء به ، لأنه طاعة ، أما من نذر أن يمشى إلى بيت المقدس كان بالخيار : إن شاء مشى إلى المسجد الأقصى ، وإن شاء مشى إلى المسجد الحرام ، أو مسجد الرسول .

٨٢ - كونها لا يحمل فيها سلاح لقتال .

٨٣ - كونها لا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها .

٨٤ - أن الجالب إلى سوقها له أجر المجاهد فى سبيل الله .

٨٥ - أن المحتكر فى سوقها ليغلى السعر على الناس ، كالملحد فى كتاب الله .

٨٦ – ما جاء فى بئر غرس بالمدينة ، من أنه ﷺ (رأى أنه أصبح على بئر من آبار الجنة ، فأصبح على بئر غرس) .

فهذا ما استطعنا ذكره من فضائل المدينة ومحاسنها ، وهو كما قلنا أكثر من أن يحصى فى بطون كتب السلف والخلف ، مما يدل على أتم وجوه الجلال والجمال والكمال . وتقع المدينة المنورة على ارتفاع يتراوح ما بين ٦٠٠ ، ٦٥٠ مترًا عن سطح البحر ، فى سهل منبسط خصيب تحيط به الجبال والمسالك الوعرة ، عدا الجهة الشمالية والشمالية الغربية منها ، وهى أيضا تقع على ملتقى طرق القوافل المسافرة للتجارة مع الشام منذ زمن بعيد ، وهى مدينة قديمة سكنها العمالقة قبل الهجرة بعشرين قرنا على الأرجح ، وقد صارت بعد الإسلام دار الهجرة ، وقد ساهم حسن موقعها فى أداء دورها العظيم فى نشر الإسلام ، حتى صارت فى عصر النبى ﷺ عاصمة الإسلام على مدى أربعين عامًا فى حياته وبعد وفاته ، ومنطلق جيوش الإسلام نحو الأمصار الجديدة .

الهجرة النبوية وبناء مسجد قباء :

لما اشتد أذى المشركين والمؤذون من قريش للنبى ﷺ وأصحابه ، بدأت هجرة المسلمين إلى الحبشة ، فكانت الهجرة الأولى ثم الهجرة

الثانية إلى الحبشة ، ومن المسلمين من هاجر إلى الطائف ويثرب (المدينة المنورة) ، وكان أبو بكر رضى الله عنه قد استأذن النبى ﷺ فى الهجرة إلى المدينة ، فأمره الرسول ألا يعجل ، عسى أن يجعل الله له صاحبًا ، فطمع الصدّيق فى صحبة رسول الله ، وأخذ يعد العدة للهجرة ، فاشترى بعيرين كان يطعمهما استعدادًا ليوم الرحيل ، فلما أذن الله عز وجل لرسوله بالهجرة ، أخبر الرسول أبا بكر بالأمر ، فطلب أبو بكر من الرسول الصحبة فى الهجرة .

وكان المشركون قد انتخبوا من القبائل رجالاً وكلوا إليهم أمر القضاء على الرسول والخلاص منه ، فكانوا ينتظرونه خارج داره ، فلما علم الرسول بأمرهم أمر على بن أبى طالب أن يتسجى برده الأخضر ، وأن ينام فى فراشه ، وكان المتآمرون كلما نظروا من ثقب فى جدار بيت الرسول أبصروا هذا المدثر فظنوه محمدا ﷺ . لكن النبى عليه الصلاة والسلام كان قد سارع إلى باب داره يفتحه ، وإلى المشركين يغبر بالتراب رءوسهم ، فغشيت أبصارهم بأمر الله ، فمر من بينهم سالمًا إلى حيث شاء الله .

ولم يفق الكافرون إلا على صوت رجل يسألهم عن سبب وقوفهم هكذا ، فيجيبونه : ننتظر محمدًا . فيقول لهم : خيبكم الله ! والله لقد خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على

رأسه التراب . فسارعوا إلى فراش الرسول يرفعون الغطاء عن النائم ، فإذا بهم أمام علي وليس أمام محمد ، فذهلوا ، وكادت تذهب عقولهم بعد أن لمسوا التراب على رءوسهم ، وخلص محمد منهم نجيا ، فأخذوا يتلاومون .

وكان الرسول ﷺ قد توجه إلى بيت الصديق بعد أن استودع عَلِيًّا أمانات الناس التي كانت عنده ، وخرج الصاحبان يقصدان المدينة تحت ستار الليل حتى بلغا غار ثور بأسفل مكة ، فدخلاه واتخذاه مخبأ لهما من قريش .

وكان عبدالله بن أبي بكر وأخته أسماء يمدانهما بالطعام والشراب في مخبئهما ، ويقصان عليهما أخبار المتآمرين ، وكانت قريش قد جعلت لمن يأتيها برسول الله قتيلاً أو أسيرًا مائة ناقة ، فضاعف الباحثون عن الرسول جهدهم ومنهم سراقة بن مالك ، وكان أحد الأعراب قد تعرف على الرسول وصاحبه في طريقهما إلى يثرب ، فأسرع إلى دار الندوة يبشر كبراء قريش بالخبر ، غير أن سراقة كذبه أمام القوم ، ليظفر هو بمكافأة قريش وحده ، ثم انطلق يسابق الريح بجواده شاهرًا سيفه ، حتى بلغ الرسول أو كاد ، فغاصت أقدام فرسه في الرمال ، ورمى به الفرس عن ظهره ، فانتفض مغيظًا مُحْنَقًا مجددًا العزم على الفوز ، لكن الفرس كَبَا به وقذفه على أحجار الصحراء ، وكلما كرر

محاولته قذف به الجواد فارتطم بالصخر حتى خشى على نفسه الهـلاك ، وأدرك أنه أمام أمر مستحيل الإدراك ، فآثر حياته على المكـافأة ، وعـاد يجر أذيـال الخيبة والمهانة والخسران المبين .

ويمضى الرسول وصاحبه ، وقد ازدادا إيمانًا على إيمانهما حتى بلغا قرية (قباء) ، ترعاهما عين الله التى لا تنام ، ويحفّهما نور الهدى والإكرام ، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وأقاما بها أربعة أيام فى ضيافة بنى عمرو بن عوف .

مسجد قباء :

وفى قباء أمر الرسول ﷺ أن يبنى أول مسجد فى الإسلام ، وهو المسجد الذى له أهميته الكبرى فى تاريخ المسلمين ، فقد كان أول مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، نزل فيه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهَّروا ، والله يحبّ المُطَّهِّرين﴾ (التوبة : ١٠٨) .

ولقد عمل فيه الرسول بنفسه فى نقل الحجر والتراب والصخر ، وفى فضله قال ﷺ : « من تطهر فى بيته ، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان كأجر عُمْرة » .



. منظر حديث لمسجد قباء بعد التجديدات والتوسعات

وقد ورد فى الصحيح أن الرسول ﷺ كان يأتى هذا المسجد كل سبت راكبًا وماشيًا ، وعلى بعد ٤٢ مترًا منه من جهة غرب المسجد تقع بئر الخاتم أو بئر أريس .

ويجمع المؤرخون على أن مسجد قباء هذا سبق فى بنائه مسجد الرسول ﷺ ، وأنه أول مسجد بنى فى الإسلام ، وأنه مسجد التقوى الذى نزل فى فضله قول الله عز وجل : ﴿لمسجد أسس على التقوى ...﴾ .

ويروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ حين سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى قال : « هو مسجدى » ، أى مسجد المدينة .

أما السهيلى : فيرى فى قوله تعالى : ﴿من أول يوم﴾ أنه مسجد قباء ، نظرا لأن تأسيسه كان من أول يوم حلّ فيه الرسول ﷺ دار هجرته الشريفة .

ويذكر ابن أبى خيثمة أن الرسول ﷺ حين أسسه كان هو أول من وضع حجرا فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ، ثم جاء عمر بحجر فوضع إلى جانب حجر أبى بكر رضى الله عنهما . وبعدها أخذ المسلمون فى البنيان .

ويرى البعض أن المتقدمين فى الهجرة من المسلمين ، الذين كانوا

قد هاجروا إلى يثرب قبل هجرة النبى ﷺ وصاحبه ؛ هم الذين أقاموا هذا المسجد فى قباء .

ومن المعلوم أن المسلمين كانوا يتوجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس أولى القبلتين قبل أن يتحولوا عنها إلى قبلة مكة (الكعبة المشرفة) والمسجد الحرام ، فوقتها لم يكن قد نزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ (البقرة : ١٤٤) .

ومسجد قباء يبع عن المسجد النبوى الشريف نحو ساعة مشيًا على الأقدام ، وهو يقع جنوب غربى المدينة المنورة ، وكان بناؤه بسيطًا ، لكنه شهد فى العقدين الأخيرين من التجديدات والتطوير والتوسعات الشىء الكثير مما يليق بمقامه وأثره . ومما يستحب فيه من الدعاء : (يا صريخ المستصرخين ، ويا مغيث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين ، ويا مجيب دعوة المضطرين ، صلِّ على محمد وآله ، واكشف كربى وحزنى ، كما كشفت عن رسولك كربه وحزنه ، فى هذا المقام ، يا حنّان ، يا منّان ، يا كثير المعروف ، يا دائم الإحسان) .

* * *

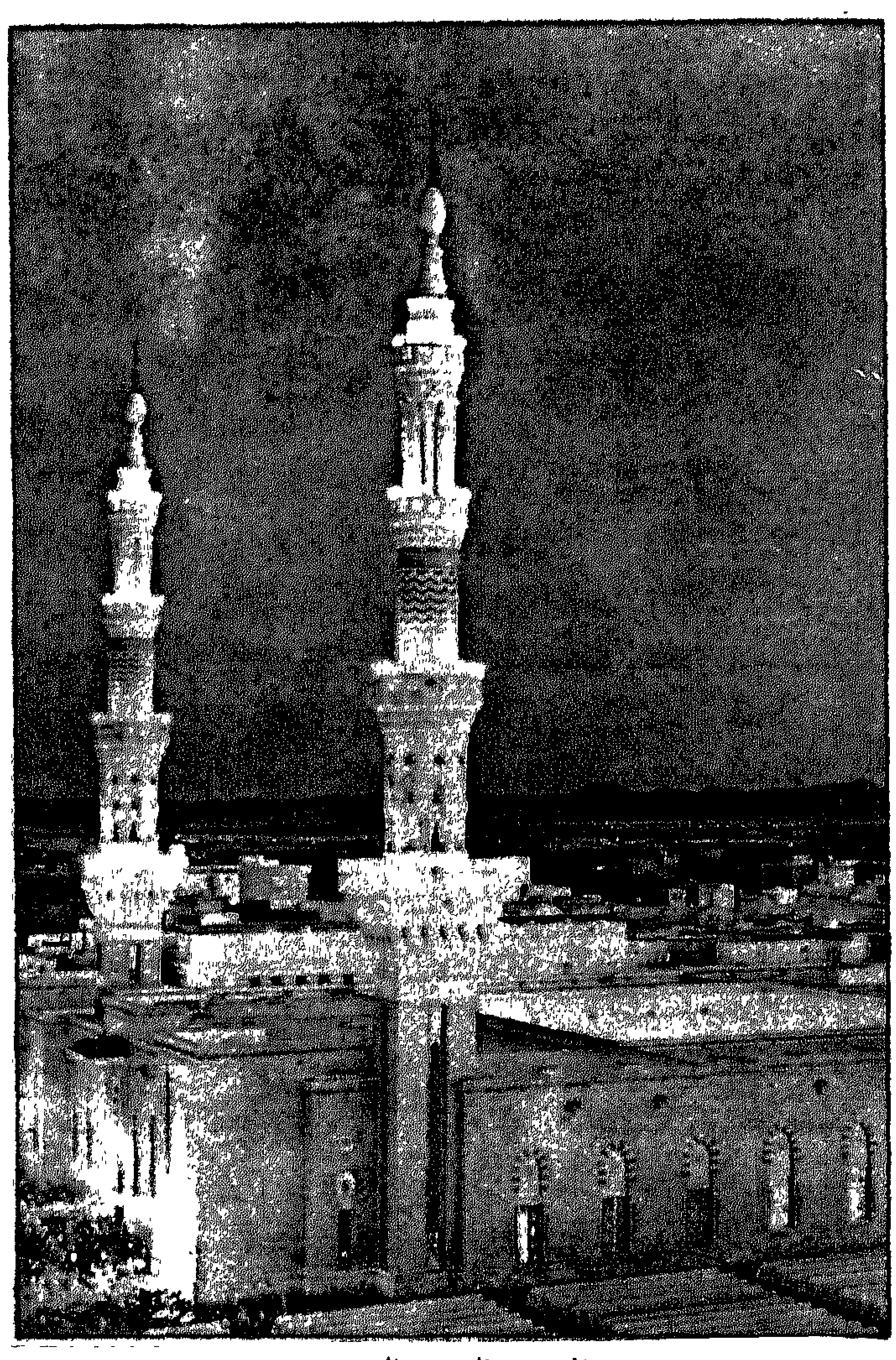
المسجد النبوى الشريف

كان أهل المدينة قبل مقدم الرسول يتلهفون على السبق إليه والترحيب به وبمن معه ، فكانوا يخرجون بعد صلاة صبح كل يوم إلى ظاهر مدينتهم ، لا يبرحون أماكنهم حتى تزحزحهم عنها حرارة الشمس إلى الظلال ، ثم لا يبرحون مكان الظل حتى يذهب ، فيعودون إلى منازلهم وهم يؤملون لقاءه فى الغد ، وتمضى بهم الأيام وهم على حالهم هذا من اللهفة والشوق ، حتى إذا ما كان يوم شديد الحر طال انتظارهم حتى كادت الشمس تغيب ، وبينما هم فى طريق عودتهم إلى بيوتهم إذا بصوت يناديهم : يا قوم .. هذا جدكم (أى حظكم وصاحب سعدكم) قد جاء ، وتدافع القوم إليه فى حرقة الشوق وفرحة اللقاء ، فأحاطوا به وبصاحبه مرحبين ، ومن حولهم بنات بنى النجار ، ينشدون : (طلع البدر علينا – من ثنيات الوداع ...وجب الشكر علينا – ما دعا لله داع ...) ، وكانوا يتسابقون إلى شرف استضافة الرسول ، وكلهم يؤمل أن يحظى بهذا الشرف ، وكان الرسول ﷺ كلما مر بقبيلة ، استوقفته ودعته للنزول عليها حيث العدد والعدة والْمَنَعَة ، ولكنه ﷺ كان يأمرهم بترك مقود راحلته ويقول لهم : « خلّوا سبيلها فإنها مأمورة » أى الناقة ، فكانوا يطلقونها ، حتى

بركت فى مربد لتجفيف التمر لغلامين يتيمين من بنى النجار فى حجر أسعد بن زرارة الأنصارى ، فنزل الرسول ﷺ عن ناقته ، وسأل عن المربد ، فقيل له : يا رسول الله إنه لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان ، فابتاع الرسول ﷺ منهما أرض المربد بعشرة دنانير لبناء هذا المسجد المبارك ، وشرع الرسول ﷺ وصحابته الأخيار الكرام فى إقامة بناء المسجد النبوى الشريف ، وكانوا يتسابقون ويتنافسون فى البناء ومعهم رسول الله يحفزهم بنفسه ويشد أزرهم ، ويأبى إلا أن يكون السابق لكل مكرمة والمجاهد الأكبر فى إعلاء بناء الإسلام .

وقد أقيمت حول المسجد مساكن لإيواء فقراء المسلمين والمهاجرين ، واستغرق البناء سبعة أشهُر قضاها الرسول ﷺ فى ضيافة أبى أيوب خالد بن الأنصارى ، وخط الرسول ﷺ الخطط لأصحابه من المهاجرين ، فى الأرض التى وهبتها لهم الأنصار ، وأذن الرسول لفقراء المسلمين الذين ليس لهم عشائر أن يناموا فى المسجد ، وكان ﷺ يدعوهم لتناول الطعام معه ، وقد عرف هذا الفريق من المسلمين بأهل الصُّفَّة ، وكان الرسول قد أقام لهم فى الركن الشمالى الغربى من فناء المسجد ظلة يحتمون بها ويعكفون على تعلم الدين والرواية عن الرسول ﷺ .

ويقع المسجد النبوى الشريف فى وسط المدينة المنورة تقريبًا ، وبإقامته أصبح كل موقع فى المدينة المنورة يستمد أهميته من قربه



المسجد النبوى الشريف

أو بعده عنه ، وقد بنى الرسول وأصحابه جدران المسجد عند إقامته من اللبن ، وهو طوب مصنوع من الطمى غير المحروق ، وسقف جزءًا منه بسعف النخيل الملاط بالطمى ، وكانت هذه الجدران فى ارتفاعها لا تعلو على قامة رجل ، وبلغت مساحة المسجد فى المرحلة الأولى ٣١,٥ × ٢٧,٥ مترًا مربعًا .

قبلة المسلمين :

كان بيت المقدس هو القبلة التى يتجه إليها الناس فى صلاتهم ، وبقى الحال كذلك قرابة سبعة عشر شهرًا بعد فرض الصلاة على أمة المسلمين بعد الإسراء والمعراج بالنبى الخاتم والرسول الكريم ، ولكن النبى ﷺ كان يعانى الكثير من سفه اليهود والمشركين وادعائهم أن محمدًا ما كان ليصلى وأصحابه متجهين إلى بيت المقدس لولا أن اليهودية هى الحق ، ولو أنه جاء بدين جديد حقًا لكان له قبلته ، فكان ﷺ يصبر على أذاهم ، ويلح على ربه فى دعائه أن يجعل له فى ذلك آية تكشف عنه الضر وتفضح كيد المشركين واليهود ، وما كان الله عز وجل ليبطئ على نبيه أو يخذله فيما هو عليه من الحق ، فلما كان النصف من شعبان للسنة الثانية من الهجرة ، نزل جبريل بأمر ربه على النبى ﷺ بالبشرى فى قول الله تعالى :﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ . (البقرة : ١٤٤) .

كان ﷺ فى زيارة أم بشر فى بنى سلمة ، وكانت قد صنعت له طعامًا ، ثم حانت صلاة الظهر ، فصلى بأصحابه ركعتين ، ثم جاءه أمر ربه أن يتوجه إلى الكعبة ، فاستدار ﷺ إلى الكعبة يتخذها قبلة له وللمسلمين من بعده إلى يوم الدين .

مسجد القبلتين :

وقد بنى هذا المسجد على إحدى الهضاب المرتفعة فى بداية الحَرَّة الغربية الشمالية ، وهو المكان الذى شهد تحول القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، ولم يكن مثل هذا الأمر العظيم ليمر على اليهود دون استياء ، فقالوا : (يا محمد ، ما ولاّك عن قبلتك التى كنت عليها ؟ فأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ، ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نصدقك ونتبعك) ، فأنزل الله عز وجل فيهم قوله : ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ . (البقرة : ١٤٢) .

وبعد أن قبل الله عز وجل دعاء نبيه ، حدث تطور معمارى فى المسجد النبوى الشريف ، فقد أضاف الرسول ﷺ للمسجد ظلة ثانية فى الجهة الجنوبية ، وجعل وسط جدارها الجنوبى علامة تعين موضع القبلة .

وفى السنة السابعة للهجرة ، وبعد عودة النبى ﷺ من فتح

خيبر ، تم توسعة المسجد النبوى حتى أصبحت مساحته ٤٥ × ٤٥ مترًا مربعًا ، لازدياد عدد المسلمين وحاجة المسجد إلى التوسعة ، ولم يكن للمسجد النبوى قبل ذلك منبرٌ ، فأشار الصحابة رضى الله عنهم على الرسول أن يتخذ له منبرًا ، فوافق واتخذ منبرًا من خشب الأثل يتكون من ثلاث درجات ، فكان ﷺ حين يخطب للجمعة يجلس على الدرجة الثالثة ، وبعده كان خليفته أبو بكر يجلس على الدرجة الثانية ، حتى كان عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكان يجلس على الدرجة الأولى وقدماه على الأرض .

ولم يكن للمسجد النبوى محراب مجوف ، وكان الرسول ﷺ قبل هجرته إلى المدينة يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، فكان يستقبل وسط جدار القبلة إلى الموضع الذى فيه الحجر الأسود ، ولهذا لم يكن يظهر توجه الرسول فى صلواته إلى بيت المقدس إلا بعد هجرته إلى المدينة .

وكان عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين أول من استحدث المحراب المجوف فى المسجد النبوى ، وفى العالم الإسلامى كله ، ذكر ذلك السمهودى فى كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، وأن أقباط مصر بنوا مقدم المسجد النبوى ، وأن الروم بنوا جوانبه ومؤخره ، فكان المحراب إذًا فى الجزء الذى بناه أقباط مصر .

كذلك لم يكن للمسجد النبوى فى عهد الرسول ﷺ مئذنة ، لأن المآذن لم تكن قد عرفت بعد ، فكان بلال يؤذن للصلاة من فوق أسطح المنازل العالية المجاورة للمسجد . كما كان للمسجد فى عهد الرسول ثلاثة أبواب لاتزال تعرف بأسمائها حتى اليوم ، وهى باب جبريل ، وباب النساء ، وباب الرحمة . وإلى الجنوب الشرقى من المسجد النبوى الشريف تقع الحجرات المطهرة التى تضم بيوت أمهـات المؤمنـين زوجات النبى ، وفى مقدمتهن السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق ، حيث دفن الرسول ﷺ ورفيقاه الصديق والفاروق ، ومنذ السنة التاسعة للهجرة علقت قناديل الزيت بسقف المسجد لإضاءته ليلا ، حيث كانت صلاة المغرب وصلاة العشاء تقام على ضـوء نـار توقد من جذوع النخيل .

وقد حرف فيما بعد ركنا قبر الرسول الشماليان ، وبنيت حوله حيطان مرتفعات مستديرة حتى لا يمكن من استقبال قبر الرسول أحد فى الصلاة .

أما فى الجنوب الشرقى للمسجد النبوى الشريف إلى اليمين من الشارع المسمى بشارع الملك عبد العزيز ، فإننا نجد المساحة الفسيحة العريقة المسماة (بقيع الغرقد) ، وهى تضم مقابر أكثر من عشرة آلاف صحابى ، منهم عثمان بن عفان ، وأمهات

المؤمنين – عدا السيدة خديجة المدفونة بالحجون – وقبر السيدة فاطمة الزهراء ، وعدد كبير من أهل البيت ، وقبر الإمام مالك مفتى وإمام المدينة ، وغيرهم من خيرة البشر .

التجديدات والتوسيعات للمسجد النبوى الشريف :

كان المسجد النبوى وسوف يبقى دائمًا محل عناية المسلمين أمة وحكامًا ، وقد عنى الخلفاء الراشدون والأمراء المسلمون والسلاطين والمماليك بعمارته وتوسعته منذ أن شارك الرسول ﷺ فى وضع اللبنة الأولى فيه ، فقد تعاقب على عمارته الخليفتان الراشدان عمر ، وعثمان ، ثم الوليد بن عبد الملك ، والخليفة العباسى المهدى ، وسلطان المماليك بمصر الأشرف قايتباى ، ثم السلطان العثمانى عبد المجيد خان ، ثم العمارتان الكبيرتان فى عهد الدولة السعودية والتى لايزال العمل جاريًا فى التوسعة الأخيرة منهما وهى توسعة لها سابقة فى تاريخ المسجد النبوى الشريف .

● وقد بدأت عمارة المسجد فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، حيث تم تجديد بنايته واتخذ له عمدًا من الخشب ، وأنشأ به ستة أبواب ، وزاد فى عمق ظلة القبلة ، كما زاد فى جوانب صحن المسجد الثلاث ثلاث ظلات أخرى .

● وفى عهد عثمان بن عفان زاد فى مساحة المسجد فجعلها ١٦٠ × ١٥٠ ذراعًا ، وبنى جدرانه من الحجارة المستوية ، واتخذ للمسجد عمدًا من الحجارة ، وأقام له سقفا من خشب الساج ، وظلت أبوابه ستة كما كانت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وفى خلافة الوليد بن عبد الملك ، بعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز – وكان واليه على المدينة – يأمره بتجديد المسجد النبوى ، وإدخال مساكن أمهات المؤمنين فيه بعد أن كانت حوله ، حتى يتسع المسجد وتصبح مساحته ٢٠٠ × ٢٠٠ ذراعًا ، وقد أمدّه بمهرة العمال والبنائين من مصر والشام لإتمام ذلك ، وكان الوليد بن عبد الملك قد طلب من إمبراطور الروم أن يساعده فى تجديد مسجد الرسول ، فبعث إليه الإمبراطور بمائة عامل وألف مثقال من الذهب ومقادير كثيرة من الفسيفساء نقلت على أربعين جملا ، وجعل عمر بن عبد العزيز فى الضلع الشمالى أربعة أروقة فى كل منها صف من سبعة عشر عمودًا ، وأحاط الصحن بمسقفة شرقية وأخرى غربية ، وأقام فوق هذه البوائك شرفات تحيط بصحن المسجد من جوانبه الأربعة ، وبينها فرج تشبه طاقات الشباك . وقيل : إن عمر بن عبد العزيز جعل للمسجد أربع مآذن ، فى كل زاوية منه مئذنة ، كما جعل فى بيت الصلاة مقصورة من خشب الساج بدلاً من تلك التى جعلها عثمان بن عفان ، والتى صنعت من الحجارة .

• وقد عمل صالح بن كيسان أساس المسجد من الحجارة ، وكذا جدرانه من الحجارة والحصى ، أما عمد المسجد فقد جعلت من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص ، وليس عليها عقود ، كما مُدّت فوقها سقف خشبية ، وأصبح لبيت الصلاة خمسة أروقة بكل منها صف يتكون من سبعة عشر عمودًا .

• ولم يزل المسجد على حاله فى العصر العباسى إلى أن هم الخليفة أبو جعفر بزيادة فيه ثم توفى .

• وفى عهد الخليفة المهدى العباسى عهد بتوسعة المسجد إلى أبى عبدالله بن عاصم وعبد الملك بن شبيب الغسانى ، وبوفاة ابن عاصم عين الخليفة المهدى مكانه عبد الله بن موسى الحمصى سنة ١٦٠ هـ ، وقد بلغت هذه التوسعة مائة ذراع ، بالإضافة إلى زخرفة المسجد بالفُسَيْفِسَاء .

• وفى عهد الخليفة المأمون العباسى ، زاد فى المسجد وأمر بزخرفته وترميم بنيانه سنة ٢٠٢ هـ .

• وفى عهد الخليفة المتوكل تم ترميم المسجد سنة ٢٢٧ هـ .

• وفى عهد الخليفة المعتضد بالله تم تجديد عمارة المسجد سنة ٢٨٣ هـ ، وظلت مساحته على حالها ، إلى أن أصابه حريق سنة ٦٥٤ هـ زمن السلطان المملوكى أيبك التركمانى .

● وطوال عصر المماليك كان المسجد النبوى الشريف موضع رعاية واهتمام سلاطينهم ، فقد جدد المسجد فى السنوات التى تلت احتراقه سنة ٦٥٥ هـ ، وسنة ٧٠٥ هـ ، وتم خلالها زيادة أروقة القبلة رواقين .

● وتعد عمارة السلطان الأشرف قايتباى من أهم التجديدات التى حدثت للمسجد النبوى الشريف ، فقد ذكر ابن إياس فى وصفه لحادث سنة ٨٨٦ هـ أن صاعقة عظيمة سقطت فى أواخر ليلة الثانى عشر من رمضان فأُحرقت المنارة التى تقع تجاه الحجرة النبوية الشريفة ، كما أُحرقت سقوف المسجد والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب ، ولم يسلم من الحريق إلا القبة الشريفة وبعض حيطان المقصورة .

وحين بلغت هذه الحادثة إلى السلطان قايتباى بكى وأُصدر أوامره بتجديد المسجد ، وجمع له من مهرة البنائين والنجارين والمرخمين ، كما أمر بإعادة بناء القبة الشريفة بعد إزالتها ، على أن تعمل من الحديد المخرّم بدلاً من الخشب ، كما شملت تجديداته المآذن والمنبر ، وقد انتهت هذه العمارة الكبيرة للمسجد سنة ٨٨٧ هـ ، وبلغت تكاليفها حوالى مائة ألف دينار ، كذلك شيد السلطان قايتباى مدرسة تطل على الحرم النبوى الشريف .

وفى شهر شعبان سنة ٨٨٨ هـ نصبت المقصورة الجديدة فى

صحن المسجد وهى تزن أربعمائة قنطار من الحديد ، وكان قد تم نقلها إلى المسجد على سبعين جملاً ، كما أرسل السلطان مع المقصورة مصحفًا كبيرًا حمل بمفرده على جمل ، بخط شاهين النووى ، أشهر خطاطى عصره ، وقد توفى قبل أن يتمه فأكمله الشيخ خطاب ، وقد ظل هذا المصحف الشريف مودعًا بالحجرة النبوية الشريفة حتى أواخر القرن العاشر الهجرى .

● وكانت مصر وقت أن كانت دار الخلافة الإسلامية تُسْهِمُ بالجزء الأكبر من عمارة المسجد . وحين آلت الخلافة الإسلامية إلى العثمانيين ، قام السلطان سليم الثانى بعمارة المسجد النبوى الشريف وشيد له محرابًا جميلاً لايزال قائمًا حتى اليوم ، وهو يقع غرب المنبر النبوى .

●وفى القرن الثالث عشر الهجرى بنى السلطان محمود القبة الخضراء .

● وفى عهد السلطان العثمانى عبد المجيد خان ، قام بإعادة عمارة المسجد ، فزاد فى الجدار الشمالى ما يكفى لبناء مخازن وأحواض للوضوء ، وأقيمت المئذنة المجيدية على الطراز العثمانى ، وتعد هذه العمارة أكبر التجديدات والتوسعات التى حدثت فى عهد العثمانيين فى المسجد النبوى وقد اكتملت عام ١٢٧٧ هـ ، وتكلفت ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية .

● وفى عصر الملك عبد العزيز بن سعود بدأت أعمال ثانى أكبر توسعة فى الخامس من شوال عام ١٣٧٠ هـ واستمرت خمسة أعوام وقد شملت مساحة كبيرة منه ، وبذلك أصبحت مساحة المسجد بعد هذه التوسعة ١٦٣٢٧ مترًا مربعًا ، بعد أن كانت فى عهد الرسول ٨٦٠ مترًا مربعًا ، وقد بلغت تكاليف هذه التوسعة نحو سبعين مليونًا من الريالات السعودية .

● وفى عهد الملك فيصل تمت توسعة أخرى بحيث بلغت مساحة المسجد ٢٠ ألف متر مربع .

● وفى عهد الملك فهد خادم الحرمين الشريفين تجرى الآن توسعة عظيمة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ المسجد النبوى يجرى العمل فيها منذ أكثر من خمس سنوات مضت[1] على قدم وساق ، وهى غاية فى الجمال والجلال والعظمة ، بحيث أصبح المسجد يضم مساحة المدينة كلها فى عهد رسول الله ﷺ ، وسوف نتحدث عنها فى الصفحات القادمة فى نهاية هذا الباب .

ولعل رسول الله ﷺ كان يعلم من أسرار الوحى أن هذه التعديلات والتوسيعات ستجرى على مسجده حيث قال ﷺ : « كل ما أضيف إلى مسجدى فهو مسجدى » .

(١) تم الانتهاء منها الآن .

آداب زيارة المسجد النبوى :

من الأدب مع رسول الله ﷺ ، ومع مسجده :

- أن يتطهر المسلم ويتطيب ، وأن يلبس أحسن ما لديه عند زيارة الرسول وصاحبيه .

- أن يستحضر فى قلبه المحبة الواجبة لرسول الله ﷺ ، وأنه هو الذى هدانا به الله إلى دينه الحق ، فأتم به النعمة ، وكشف به الغمة ، وهدى به بعد الظلمة .

- أن يسلم عليه وعلى صاحبيه . قال ﷺ : « ما من أحد يسلم علىّ إلا ردّ الله علىّ روحى حتى أرد عليه السلام » ، وقال ﷺ : « من صلّى علىّ صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشرًا » .

وقال عز وجل : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

- أن يسبق ذلك صلاة ركعتين فى الروضة الشريفة ، دون مزاحمة أحد من المصلين ، وإلا صلاهما فى أى مكان من المسجد النبوى .

- ألا يرفع صوته بالدعاء أو النداء أدبًا مع رسول الله ﷺ .

- أن يستأذن فى الزيارة خاشعًا متمثلاً مهابة الرسول كما لو وقف أمامه فى حياته ، وقد كان الإمام مالك يكره أن يقال :

زرنا قبر الرسول ﷺ ويحث على القول : (زرنا النبى) ﷺ ، لأنه يسمع نداءنا ويرد السلام ، فلا فرق بين من زاره قبل الانتقال وبعده .

● أن يصدر لزيارة الرسول محتسبًا . قال ﷺ :« من حج إلى مكة ثم قصدنى فى مسجدى كتبت له حجتان مبرورتان » .

وزائر الرسول ﷺ فى المدينة يحظى بعشر كرامات هى :

١ – اعتلاء أرفع المراتب .
٢ – بلوغ أثنى المطالب .
٣ – قضاء المآرب .
٤ – بذل المواهب .
٥ – الأمن من المعاطب .
٦ – التطهر من المعايب .
٧ – تسهيل المصائب .
٨ – كفاية النوائب .
٩ – حسن العواقب .
١٠ – رحمة رب المشارق والمغارب .

ولوجود مقام النبى فى الأرض سبع فوائد هى :

١ – رفع العذاب عن أهل الأرض ، قال تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ (الأنفال : ٣٣) .

٢ – ليكون الزائر فى روضته التى أعدها الله تعالى .قال ﷺ : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

٣ – لتزوره أمته وتسلم عليه فيفرح بذلك ويرد عليهم . قال ﷺ : « من صلّى علىّ قريبا سمعته ، ومن صلّى علىّ نائيًا أُبلغته » .

٤ – ليسلم المسلمون عليه فيسلم الله عز وجل عليهم بكل تسليمة عشرًا .

٥ – ليشفع للزائرين له ؛ قال ﷺ : « من زارنى وجبت له شفاعتى » .

٦ – لتزداد أمته إيمانًا وحبًّا له عند زيارته والصلاة فى روضته .

٧ – ليصلى لربه فتنزل البركة فى الأرض ، وليستغفر لهم الله ، قال ﷺ : « تُعرض علىّ أعمالكم فإن وجدت خيرًا شكرت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت الله لكم » .

ومن خير ما يختم به الزائر للمصطفى أن يسلم عليه وعلى صاحبيه داعيًا ومناديًا فيقول : « السلام عليكم يا سيدى يا رسول الله ، وخير خلق الله ، ويا حبيب الله ، ويا سيد المرسلين وإمام المتقين ، أشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، وجاهدت فى الله حق جهاده . اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك رسول الله ، الرحمة والهدى . يا محمد : إنى أتوجه بك إلى ربك فى حاجتى لتقضى ، اللهم ارزقنى رزقًا طيبًا ولا تجعل هذا آخر عهدى بنبيك الكريم » .

ثم يقول : « السلام عليك يا صفوة خلق الله ،يا من أنزل الله عليك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا﴾ . (النساء : ٦٤) .

وقد ظلمت نفسى ، وهأنذا قد أتيتك أستغفر من ذنبى فاشفع لى عند ربى » .ثم يسلم على أبى بكر وعمر .

مزارات جبل أحد :

ويستحب لزائر المدينة أن يتوجه قبل مغادرته لها للدعاء لسيد الشهداء الحمزة أسد الإسلام ، وعم النبى ، ومعه فى قبره ابن أخته عبدالله بن جحش ، ومصعب بن عمير رضى الله عنهم جميعًا ، ثم يدعو لشهداء أحد ، وهم سبعون شهيدًا دفنوا فى الساحة القريبة من قبر الحمزة رضى الله عنهم بسفح جبل أحد .

وجبل أحد يبعد عن المدينة شمالاً قدر ساعة من المشى ، وهو الذى قال فى فضله رسول الله ﷺ : « أحد جبل يحبنا ونحبه » . وقال ﷺ : « إن أحدا على باب من أبواب الجنة فإذا جئتموه فكلوا ولو من عضاهه »[1] .

* * *

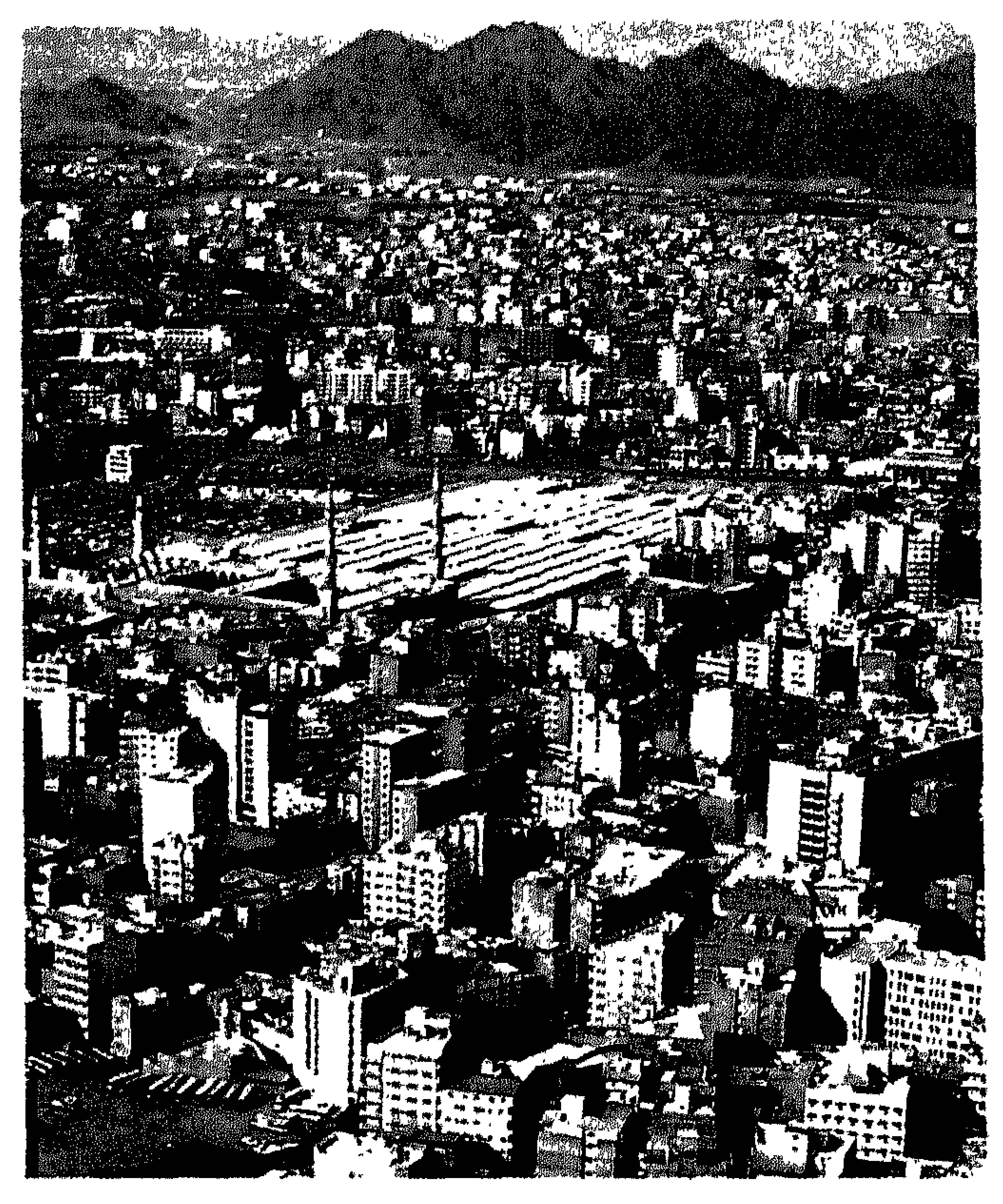
(١) العِضَاهُ : كل شجرٍ له شوك – صَغُر أو كَبُر . والواحدة : عِضَاهَةٌ .

توسعة المسجد النبوى وتجديده فى العقد الأخير :

كانت مساحة المسجد قبل التوسعات عشرة آلاف متر مربع تستوعب سبعة عشر ألـف مصلٍّ فقط ثم أصبحت بعد التوسعة السعودية الأولى ١٦٥٠٠ متر مربع تستوعب ٦٥٠٠٠٠ مصلٍّ ، فى الأيـام العادية وحـوالى مليـون مصلٍّ فى مواسـم الحج والعمرة ، أما بعد التوسعات الحـالية فسوف تصل المساحة إلى ٩٨٥٠٠ متر مربع ، فضلاً عن مساحة السطح المستخدم للصلاة ، وذلك إلى جانب ٢٣٥٠٠٠ متر مربع عبـارة عن المسـاحات المحيطة بالمسجد .

وكان عدد المآذن ٤ مآذن ارتفاع كل منها ٧٢ مترًا ، وقد أضيف إليها فى التوسعة ٦ مآذن ارتفاع كل منها ١٠٥ مترات ، وبذا يصبح للمسجد النبوى عشر مآذن .

كذلك تضمنت التوسعات إنشاء ستة عشر مدخلاً جديدًا ، بحيث يصبح عدد المداخل ٢٣ مدخلاً ، أما أبواب المسجد القائمة فكانت ١٦ بابًا فأضيف إليها ٦٥ بابًا ، وأصبح للمسجد بعد التوسعة ٨١ بابًا ، كذا إنشاء ١٨ سلمًا تؤدى إلى سطح المسجد ، مع تركيب ٣٦ سقفًا متحركًا ، وخمس سلالم كهربائية ، وتأمين



منظر عام للمدينة المنورة يتوسطها الحرم النبوى فى العصر الحديث

خدمات التهوية والإنارة والسقيا ، بالإضافة إلى كسوة الأرضيات بالرخام العازل للحرارة .

ويبلغ إجمالى تكلفة هذه التوسعات والتجديدات نحو أكثر من ستة آلاف مليون ريال سعودى وجدير بالذكر أن الحكومة السعودية قد أنشأت بالمدينة المنـورة مجمعًا لطبـاعة المصحف الشريف لتوفر مصحفًا فريد الطباعة لكل مسلم فى العالم ، وقد تم إنشاء المجمع بين عامى (١٤٠٣/ ١٤٠٥ هـ) وهو مقام على مساحة ٣٥٠,٠٠٠ متر مربع ، وإصدارات المجمع مطبوعة ومسموعة .

* * *

الباب الرابع

- مدينة القدس .
- مسجد الصخرة وقبته .
- المسجد الأقصى .

مدينة القدس

ليست القدس وليدة قرن من القرون أو عصر من العصور ، فهى مدينة تاريخية قديمة ، فحجارتها القديمة تحكى عِبَرَ الزمان وصحائف الحدثان وقصة الإنسان منذ كان ، ومن القدس انبلجت المعارف ، ومن آفاقها امتلأت سماء الدنيا بالإيمان ، وفيها التقت الرسالات والأديان ، ولقد صمدت القدس لنوائب الزمان بأنواعها ، وطوارئ الحدثان بجميع ألوانها ، فلم يغفل عنها فاتح من الفاتحين ولا غاز من الغازين ، سواء فى ذلك المتقدمين والمتأخرين ، لعظمة مكانتها فى نفوس المؤمنين ، ولقد وقفت القدس صامدة مجاهدة عبر تاريخها الطويل لا تركع ولا تنحنى عبر خمسة آلاف عام كانت ولا تزال تستقبل فيها حجيج الأديان السماوية الثلاثة ، وإن تعرضت لضروب من التدمير لم تسلم منها إلا فى العهود التى كانت فيها تحت رعاية المسلمين ، الذين أمّنوا فيها مقدسات كل الأديان ، ولعل العهدة العمرية منذ الفتح الإسلامى للقدس ؛ ونضال صلاح الدين لاستعادتها من أيدى الصليبيين خير شاهد ودليل على إعزاز المسلمين لها ، وضمانهم لأمنها ، وحفاظهم على مقدساتها .

والقدس هى المفتاح الاستراتيجى للضفة الغربية من نهر الأردن ،



منظر لمدينة القدس يظهر فيه المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة

فهى تتوسط هذه الضفة وتسيطر على طرق المواصلات الرئيسية من منطقة الخليل فى الجنوب ومنطقة نابلس فى الشمال ، بالإضافة إلى سيطرتها على الطريق الرئيسى إلى الشرق ، الذى يصل الضفة الغربية بالضفة الشرقية ، غير منطقة أريحا .

وفلسطين ذاتها كانت دائما بلدا فقيرا ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت جسرا يربط بين القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا ، كما كانت حلقة الاتصال بين حضارات مختلفة ، هى حضارة مصر ، وما بين النهرين ، وحضارة الحيثيين ، وشمال الجزيرة العربية ، وفيها يجد علماء الآثار نماذج من الثقافات ، ورسائل مكتوبة بالخط المسمارى ،. وقطعًا من النقود ضربت على سواحل بحر إيجة وحجارة تنتمى إلى عهد الفراعنة ، وبقرب بحيرة طبرية اكتشفت بقايا إنسان ما قبل العصر الجليدى الأول ، كما أظهرت حفريات سفوح الكرمل حضارة ترجع إلى ما يقرب من عشرة آلاف سنة . ولاشك أن موضع القدس كان مسكونًا منذ فترة الاستقلال والتحضر الأولى ، فقد وجدت نماذج من الفخار فى قبر على منحدر تل (عوف إيل) الذى سماه الرومان فيما بعد (أوفيل) ، جنوب المدينة الحالية ، ذلك التل الذى كان نواة للمدينة اليبوسية ، وقد أرجع العلماء هذا الفخار إلى العصر البرونزى القديم ، أى قبل ثلاثة آلاف عام من ميلاد المسيح عليه السلام ، وعلى هذا التل قامت القدس القديمة تحيطها الوديان من ثلاث جهات ، ولا تصل بالأرض إلا من الشمال .

وقد بنى اليبوسيون هناك أول معبد لهم على مساحة تبلغ سبعين ألف متر مربع ، وفى هذه المدينة ظهر أنبياء الكتب المقدسة إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وشرع إبراهيم الخليل فى التضحية بابنه إسماعيل عليهما السلام طاعة لأمر ربه فى الرؤيا التى أراها له الله ، ثم افتداه سبحانه بذبح عظيم بعد ما رأى من تصديق إبراهيم وطاعة إسماعيل . وقد نفى القرآن ادعاء اليهود بأن إبراهيم كان يهوديًّا .قال تعالى : ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا﴾ (٦٧/آل عمران) .

وهكذا فضح الله اليهود ، فمن الناحية العنصرية فإن إبراهيم أبانا ، ومن الناحية الدينية فإبراهيم نبينا ، وعليه نصلى ونبارك فى صلواتنا خمس مرات كل يوم .

فمدينة القدس عربية ، والتاريخ يشهد قبل أكثر من خمسة آلاف عام من ميلاد المسيح عليه السلام أن هجرات عربية عديدة انطلقت من جنوب الجزيرة العربية ووسطها إلى هذا المكان بعد كوارث مناخية وتغيرات جغرافية فى تضاريس شبه الجزيرة فى قلبها وأطرافها .

وقد عرفت هذه الهجرات باسم (التجمعات الفينيقية) ، وما تزال مدينتا صور فى عمان ولبنان إلى العصر الحاضر شاهدًا على هذه

الهجرات . واستقر الفينيقيون على شواطئ البحر المتوسط ، ونقلوا معهم علومهم فى أصول الكتابات الحديثة ، ومعارفهم البحرية فى قيادة السفن وصناعتها ، و براعتهم التجارية .

ثم تجمعات اليبوسيين أو (الكنعانيين) التى استقرت فى سفوح الجبال والوديان شرقى ساحل البحر المتوسط ،وأسسوا ممالك متعددة تحوط مدنها الأسوار وأحواز الدفاع ، وقد أسس اليبوسيون (مدينة السلام) أو (أورسالم) التى حرفت عن عربيتها إلى العبرانية بعد قرون إلى (أورشليم) ، وسالم هو أحد ملوك اليبوسيين القدماء .

وفى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد ، لمع اسم (ملكى صادق) أو (ملكيصادق) الذى اتسعت أرجاء مملكته حتى بلغت أريحا ورام الله ، فأعاد تنظيم المدينة ، وشيد لها أسوارا من الحجارة ، واستنبط لها مياه الآبار ، واشتهرت المدينة باسم (أورسالم) أو (يبوس) كما علم من مدونات تل العمارنة .

ولأن اليبوسيين أقاموا هيكلاً أو معبدًا أو (بيت قدس) لعبادة إلهم الأعلى (سالم) على مرتفع (الضهور) ، وقام مِلِكُهم (ملكى صادق) بدور الكاهن ، فكان يلقب (كاهن الله العلىّ) ، قُدِّست المدينة واعتبرت حرمًا آمنًا أو دار سلام ، وسميت (بيت المقدس) . ولقد شهدت مدينة القدس أكثر من أربعين غزوًا حتى الآن ، والغزو الصهيونى هو الغزو الواحد والأربعون لها عبر تاريخها الطويل ،

وهذا قدرها ، فجحافل الغزاة كانت دائمًا تطمع فى هذا المعبر الأرضى بين الأراضى التى ضاقت بكثافة سكانها ، أو خرج ملوكها ليزيدوا من سيطرتهم ويوسعوا من ممالكهم أو يثيروا الرعب والتنكيل حفاظًا على حدود ملكهم ، ومن هؤلاء الغزاة :

١ – **السومريون** : وكانوا يقيمون فى أرض العراق ، وما حول دجلة والفرات ، ومن بعدهم جاء الأشوريون ثم البابليون ، وكانوا يداومون الغزو غربًا ليطلوا على البحر الذى يعرف الآن بالبحر الأبيض المتوسط .

٢ – **والهكسوس** : هم خليط عربى من هجرات غابرة استقرت فى القوقاز ، وصاهرت إلى أهلها فى عصور سحيقة ، ثم عادوا ليغزوا أرض الهلال الخصيب (سورية والعراق وفلسطين وسيناء) .

٣ – **والحيثيون** : وكان موطنهم أقرب إلى بيت المقدس من الهكسوس ، إذ كانوا يسكنون آسيا الصغرى على شواطئ البحر الأسود ، وكانت حدودهم الجنوبية عند حلب وأنطاكية .

٤ – **والحوريون** : وهم سكان أرمينيا فى الألف الثانى قبل الميلاد ، وقد انتشروا فترة ثم تفككوا ، وصاروا تجمعات صغيرة حول (يبوس) أو (أورسالم) .

٥ – **الفراعنة المصريون** : وكانت غزواتهم إلى الشمال الشرقى قد بلغت حدود الحيثيين والهكسوس فى عهود متفرقة فى التاريخ .

٦ - **العبرانيون** : وهؤلاء ليسوا جنسًا أصيلاً بعنصره ، وإنما هم خليط بين طوائف العبريين الذين سكنوا الهلال الخصيب فى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد وأول الألف الأخير ، وبين أحفاد إبراهيم ويعقوب عليهما السلام . وإبراهيم الخليل عليه السلام كنعانى من بلدة أور على نهر دجلة ، وقد كفر بالأصنام التى يعبدها قومه ، وقد حاجَّ إبراهيم قومه مرتين ، ففى المرة الأولى حاجّ قومه وملكهم : ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ (الآيات ٧٠ - ٧٤ الشعراء) .والثانية عندما حاج إبراهيم الملك النمروذ بن كنعان وحده ، قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ، فبهت الذى كفر﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

ويحكى التاريخ بأنه بعد نجاة إبراهيم من النار التى كان النمروذ قد أعدَّها له ، فإن إبراهيم هاجر من العراق وتركها ، وهاجر أحفاده إلى مصر مع أبيهم يعقوب عليه السلام ، وأنهم نزلوا على يوسف عليه السلام ضيوفا ، إلى أن كان خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام .

كان خروج موسى من مصر أمرًا من ربه ، قال تعالى : ﴿ وأوحينا

إلى موسى أن أسْرِ بعبادى إنكم مُتّبعون﴾ . (٥٢ : الشعراء) .
فلما جاوز بهم موسى البحر كفروا به بمجرد العبور ، فحكم الله عز وجل عليهم بالتيه فى سيناء . وإذا كان المؤمنون من قوم موسى قد أفلحوا فى دخول أرض اليبوسيين عام ١٢٦٠ قبل الميلاد ، واستولوا على أريحا بقيادة طالوت ومعه يوشع بن نون النبى ، فإن دخولهم لم يبلغ أسوار بيت المقدس إلا عام ١٠٤٩ قبل الميلاد ، حيث ملك داود باسم الإسلام ، ومن بعده سليمان عليهما السلام ، ولم يدم ملك سليمان وأبيه أكثر من سبعين عاما حتى بدأ الكفر يعود إلى قلوب الإسرائيليين ، فغزاهم سنحاريب الأشورى سنة ٧٠١ قبل الميلاد ، وفرض عليهم الجزية ، وقد كانوا أقلية ، أما الكثرة السكانية فكانت للآراميين والكنعانيين ، ولكن الإسرائيليين لم يكفوا عن الإفساد فى الأرض ، فانقض بختنصر البابلى أو (نبوخذ نصر) على المدينة المقدسة وأجرى الإبادة فى بنى إسرائيل ، وساق من بقى منهم أمامه إلى بابل ، ولم يقل أحد من المؤرخين إنه فتك بغير اليهود ، فقد كان معهم اليبوسيون والآراميون الذين ابتلوا باليهود يفسدون فى الأرض ويقتلون الأنبياء بغير حق ، فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، فكان اليهود سببا فى تدمير المدينة المقدسة عدة مرات ، واشتعال الصراع بين الفرس والروم عليها ، حتى أقيمت فى أرضها الطاهرة الهياكل الوثنية لجوبيتر وفينوس ، فالقدس لم ينلها من اليهود إلا السوء ، وتوالى

الغزوات ، فقد غزاها فرعون مصر شيشت واستولى على ما كان في هيكل سليمان من نفائس ، واعتبرها حقًا للأميرة المصرية التى كانت زوجة للملك سليمان وعاشت ردحًا من عمرها فيها ، ثم غزتها دولة آشور عدة غزوات كان آخرها سنة ٧٢٢ قبل الميلاد ، كما غزاها البابليون سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ، ثم سقطت بابل على يد قورش ملك فارس ، وبعد أن ضعف حكام الفرس ونشأت قوة جديدة فى بلاد اليونان ، تحوّل اليهود بولائهم إلى القوة الجديدة ، فلما اقترب الإسكندر المقدونى من (أورسالم) خرج أحبار اليهود يستقبلونه وقدموا له الخضوع وسَمُّوا كل مولود لهم فى هذه السنة باسم (إسكندر) ، فكافأهم على ذلك بإعفائهم من الضرائب . ثم دخل بومبى القائد الرومانى مدينة القدس سنة ٦٣ قبل الميلاد وجعلها ولاية رومانية واستمرت رومانية تحت حكم الرومان الغربيين والشرقيين والبيزنطيين .

ومن العبث أن يحاول اليهود اصطناع تاريخ لهم فى فلسطين ، فقد جاءوا إلى فلسطين كغيرهم ، فأهدروا حضارة شعبها ، وتعلموا لغتهم ، واقتبسوا طقوسهم ، هذا بالإضافة إلى أنهم لا صلة بينهم وبين يهود الغرب الذين يعودون إلى أصل خزرى فى غالبيتهم ، لذا فمن العبث أن يردد الصهاينة ارتباط القدس باليهود دون غيرهم ، فالقدس على مدى ما شرحنا من المراحل التاريخية كانت عربية ، وسوف تبقى عربية إسلامية ، ينعم فيها بالسلام كل مؤمن بالأديان .

القدس بعد ميلاد المسيح عليه السلام :

ثم ولد المسيح عليه السلام فى بيت لحم ، وذلك فى عهد الحاكم الرومانى على القدس المسمى (هيرودس) ، فلما بعث الله المسيح داعيًا ونذيرًا ومبشرًا برسول من بعده اسمه أحمد ، قتل اليهود غيظًا وكمدًا وكادوا له كيدًا ، ولم تكن أيديهم قد غسلت بعد من دم نبى الله يحيى بن زكريا ، فعادوا إلى خبث عنصرهم وسوء أعمالهم ومكرهم ، ولاقى منهم المسيح ما لاقى ، وكانت نتيجة ذلك أن حرّم الإمبراطور (أدريانوس) على اليهود دخول بيت المقدس سنة ١٣٥ م ، كما حرم عليهم سكناها ، بل إنه كان يأمر بطرد وصلب المسيحيين الذين يثبت له أنهم من أصل يهودى .

وأعاد (أدريانوس) عمارة بيت المقدس ، وأطلق عليها اسمها الجديد (إيليا كابيتولينا) أو إيليا الكبرى ، وبعد ثلاثمائة سنة ونيِّفٍ من ميلاد المسيح عليه السلام اعتنق الرومان المسيحية ، بعد أن أثخنوا فى المسيحيين الأُوَل قتلاً وصلبًا وتعذيبًا ، فحين اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية خرَّب هيكل فينوس ، وأقام مكانه كنيسة القيامة باسم أُمِّه الإمبراطورة (هيلانة) سنة ٣٣٥ م ، وأزال كل معالم الوثنية من إيلياء ، فأسبغ البطاركة عليه وعلى أُمِّه ألقاب القديسين ، ونعم بيت المقدس بالسلام على مدى ثلاثمائة عام ، غابت عنها فيها معالم الوثنية ، وأقيمت الكنائس وكثرت

البِيَع والصومعات ، وأصبحت إيليا مقصد حجاج المسيحيين ، واتخذ القياصرة والرومان لهم فيها الخلوات والقصور ، ويؤمونها فى عيد الفصح لإمامة القداسات ، باعتبارهم رؤساء الكنيسة الرومانية الشرقية . ولكن سلام بيت القدس لم يدم طويلاً ، فقد خلفت دولة الفرس البابليين على العراق ، وقام الصراع بينهم وبين الروم على الحيرة وأرض الشام من أنطاكية إلى ما تحت إيلياء .

وفى عام ٦١٤ ميلادية ، شنّ خسرو أبرويز (كسرى) حملة على بلاد الشام ، وعاث فيها فسادًا ، واستولى على أنطاكية ثم دمشق ، وحاصر بيت المقدس مدة حتى سقطت فى أيدى جيوشه ، فدخلوها مخربين ، وصاروا ينشرون الدمار والمذابح حيث يسيرون ، وينهبون الأموال والثروات ، بل إنهم - وَهُم مجوس - أحْرقوا كنيسة القيامة ، وأخذوا المخلفات المقدسة لدى المسيحيين إلى المدائن رمزا لغلبتهم ونصرهم .

وكانت ضربة قاصمة لجيوش هرقل الرومانى فرح لها الوثنيون من قريش والمشركون ، فقد كان محمدٌ ﷺ قد بُعث برسالة الإسلام ، وكان الرومان أهل كتاب والفرس مجوسًا ، فأعلن المشركون بمكة شماتتهم بأهل الكتاب أمام المسلمين ، ولم يكن الله عز وجل عاجزاً عن تثبيت قلوب المسلمين ومواساتهم ، فنزل جبريل على محمد ﷺ يبشره بكلام ربّه :﴿ألم . غلبت

الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾. (١ - ٥: الروم) .

فكانت هذه الآيات المباركات بشرى لرسول الله ﷺ وللمسلمين بنصر أهل الكتاب ، وذلك قبل الحدث بسبع سنين ، إخبارا بالغيب ، وتطييبًا للقلوب التى تعاطفت مع أهل الكتاب ، وتقريرًا لخزى المشركين بالله وإخوانهم قبل وقوعه .

وكان هرقل يعد نفسه وجيشه لمعركة فاصلة تمحو عار الهزيمة ، فلما كان عام ٦٢٢ ميلادية استدرج هرقل الفرس لمعركة فى أرمينيا كان النصر فيها حليف الروم ، وبلغت الهزيمة بجيوش الفرس أن تابعهم الروم حتى المدائن وتمكنوا من رد الكنوز والمخلفات وعادوا بها إلى إيلياء ، بل إن بشارة الله عز وجل للمؤمنين كانت مزدوجة ، فقد دارت الدائرة على المشركين فهزمهم المسلمون فى غزوة بدر الكبرى سنة ٦٢٤ ميلادية ، وكان ذلك فى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة .

الإسراء والمعراج :

وبين انتصار الفرس وهزيمتهم ، وقبيل هجرة الرسول ﷺ بثمانية عشر شهرًا - على الراجح من روايات التاريخ والسيرة - كرم الله تعالى رسول الله ﷺ بمعجزة الإسراء والمعراج ، بعد أن كان

المشركون قد بالغوا فى إيذائه ومن معه ، وبعد بشاعة لقاء أهل الطائف له ، وبعد وفاة عمه أبى طالب بعد شهور من وفاة زوجة الرسول خديجة بنت خويلد ، وثباته ﷺ برغم كل ذلك على الحق لا يتزحزح عنه ولا يحيد ، برغم شدة ما هو فيه ومن معه من المسلمين ، حتى لقد نزل جبريل ومعه ملك الجبال يستأذن الرسول فى إبادة المشركين واستئصال شأفتهم ، بأن يطبق عليهم الأخشبين ، فأبى وقال : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون » ، فكافأه الله عز وجل بهذه المنحة التى أذهبت عنه المحنة ، كافأه بالإسراء والمعراج ، قال تعالى : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ . ولقد كان من دلالات هذه المعجزة عدة بشريات وأمور منها :

١ - أن الله عز وجل مؤيد عبده ، وبالغ أمره ، وناصر دينه على الرغم من عناد المشركين .

٢ - أن الإسلام تمام الديانات السماوية ، وأن الله سبحانه وتعالى جمع الأنبياء ورسالاتهم فى محمد ورسالته ، واصطفاه لهم إمامًا .

٣ - أن ذلك الدين الشامل الخاتم سوف يهيمن على أرض الرسالات الأولى لينشر فيها وبين أهلها السلام ولتشرق عليها دائمًا شمس الإسلام .

ولعل فى روايتنا هذه أبلغ دليل على صحة هذه الدلائل ، ففى مدة الهدنة بين النبى ﷺ وبين قريش فيما يسمى (صلح الحديبية) ، كان هرقل (هيراكليوس الصغير) قد عاد إلى إيلياء بعد انتصاره على الفرس ، فأرسل النبى إليه رسالة مع دحية الكلبى يدعوه فيها إلى الإسلام ، ودُفِعَ إليه وفد من قريش بزعامة أبى سفيان بن حرب ، وجرى حوار فريد بين هرقل وأبى سفيان لم يلبث هرقل بعده أن قال لأبى سفيان : (لئن كان الذى سمعت منك حقًا فسيملك محمد موضع قدمىّ هاتين (أى إيلياء) ، ولئن كنت عنده لغسلت عن قدميه) . يعنى تكريمًا للنبى ﷺ كما كرم يحيى عليه السلام المسيح عيسى .

بيت المقدس فى نور الإسلام وتحت مظلته :

وكما توقع هرقل وأخبر ، فقد خرجت جيوش المسلمين هادية مبشرة لا هاتكة مدمرة ، ودارت المعارك بين جند الرومان فى عددهم الكثيف ، وعدتهم الثقيلة ، وتحت قيادة جبابرة المعارك ذوى الخبرة العالية ، يشدُّ من أزرهم ويضاعف قوتهم وكثرتهم نصارى العرب من أهل فلسطين ؛ وبين جند المسلمين الذين يبغى كل واحد منهم النصر أو الشهادة لا يرضى عن إحداهما بديلاً ، وكان نصر الله للمسلمين فى اليرموك وفى أجنادين من بعدها ، كل ذلك سنة ٦٣٨ م ولم يكن قد مضى عشر سنوات على عودة

القدس للروم ، وبعد نحو ثمانية عشر عامًا من معجزة الإسراء والمعراج ، وانتهت المعارك بنصر الله لجنده ، وانتزع هرقل بنفسه وصعد إلى أنطاكية ، وفرَّ الأُرْطبون داهية الروم إلى القدس التى فتحها المسلمون .

ويبعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا عبيدة بن الجراح بكتابه يدعو إلى الإسلام أو التسليم :

(بسم الله الرحمن الرحيم ،من أبى عبيدة عامر بن الجراح إلى بطاركة إيلياء وسكانها ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، أما بعد : فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . فإن شهدتم بذلك حُرِّمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم وكنتم لنا إخوانًا ، وإن أبَيْتُم فأقِرُّوا لنا بالجِزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإن أنتم أبيتم سرت إليكم فى قوم هم أشد حبًّا للموت منكم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير) .

ودام حصار شرس لمدة أربعة أشهر ، لم يَخلُ يوم منها من قتال ، أبلى فيها جند المسلمين أحسن البلاء حتى ضاق أهل إيلياء بالحصار ، فرفعوا راية الاستسلام على شروط المسلمين ، على أن يلى العهد خليفة المسلمين بنفسه ، وله تفتح أبواب القدس ، فعندئذ توقف القتال ، وأرسل أبو عبيدة برسله إلى عمر بن الخطاب فى

المدينة يبلغه بما كان ، واستشار عمر أصحابه – وهم صفوة أصحاب رسول الله ﷺ – ثم استخلف على المدينة على بن أبى طالب ، واستقبله القواد فى سلاحهم ، والمسلمون فى تعبئتهم ودروعهم مكبرين مهللين ، وعمر وحده مع خادمه يتناوبان ركوب ناقة ضامرة ، لا يعرف الناس أيهما الأمير وأيهما التابع ، وما إن استقر عمر خارج الأسوار حتى جاء يسعى (صفرونيوس) بطريرك إيلياء (بيت المقدس) حاملاً صليبه وحوله البطاركة والرهبان والشمامسة يزفنون[1] ، حتى انتهوا إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، خفّ للقائهم ، فكفُّوا عن تشميسهم وزفنهم ، وشرع أصحاب عمر فى كتابة العهدة العمرية فى حضور البطاركة ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر مِلّتها . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا ينقص منها ولا من حَيِّزها ، ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكْرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجِزْية كما يُعطى أهلِ المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على

(١) يزفنون : يرقصون ابتهاجًا بقدومه .

نفسه وماله حتى يبلغوا أمانهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخلى بِيَعَه وصلبه فإنهم آمنون على أتاسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض ؛ فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء منهم رجع إلى أهله ، فإنه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصاده . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوه الذى عليهم من الجزية) . كتب وحضر سنة ١٥ هـ - ٦٣٦ م

شهد على ذلك : خالد بن الوليد ، عمرو بن العاص ، عبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان .

* * *

مسجد عمر (مسجد الصخرة)

عمر فى كنيسة القيامة :

دخل عمر مع (صفرونيوس) كنيسة القيامة ، وهناك حان وقت الصلاة وأذن المؤذن ، فعرض (صفرونيوس) على أمير المؤمنين عمر أن يصلى فى موضعه ، فأبى عمر تسامحًا ،وحتى لا يأتى من المسلمين من يتخذها ذريعة فيهدم الكنيسة ليقيم مكانها مسجدًا .

ثم غادر عمر الكنيسة إلى ساحة قريبة منها ، فصلى فيها هو ومن معه ، فلما أتم عمر صلاته أتى الصخرة المشرفة ، وكانت قد أهملت زمن الرومان وتجمعت عليها الأتربة والزبل ، وأخذ عمر ينظفها بنفسه ، وحذا حذوه من كانوا معه من الصحابة والقادة والجند ، وهناك أمر عمر بإقامة مسجد للصلاة ، فأسرع الصناع من جند الفتح المبين ينفذون أمر أمير المؤمنين ، فأقيمت جدران المسجد وسقوفه من الخشب بسعة ثلاثة آلاف مُصَلٍّ ، بحذاء الجدار الشرقى لبناء المسجد الأقصى اليوم ، وفى مواجهة كنيسة القيامة ، لكن المسجد لبساطة مواد بنائه ما لبث أن اندثر قبل بناء عبد الملك بن مروان لمسجد الصخرة وقبته الشهيرة ، وهكذا كان أول عمل لعمر بن الخطاب بعد فتح القدس ، هو بناء المسجد ،

تمامًا كما فعل رسول الله ﷺ فى قباء طريق مهاجره من مكة إلى المدينة ، قال تعالى : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾ (الأحزاب : ١٢) .

وقال عز وجل : ﴿الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج : ٤١) .

ثم إن عمر ولّى يزيد بن أبى سفيان إدارة بيت المقدس ، تحت إمارة أبى عبيدة بن الجرّاح ، كما ولّى سلامة بن قيصر إمامة الصلاة ، وعلقمة بن مجزر قيادة الحامية العسكرية .

وقد أقام عمر بن الخطاب فى بيت المقدس عشرة أيام ؛ فلما هَمَّ بالعودة إلى المدينة المنورة جمع المسلمين للصلاة وخطبهم ، قال : (يا أهل الإسلام ، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد ، ونصركم ، وأورثكم البلاد ، ومكّن لكم فى الأرض ، فلا يكونن جزاؤه منكم إلاّ الشكر ، وإياكم والعمل بالمعاصى ، فإنه كفر بالنّعم ، وقلّما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلاّ سلبوا عزّهم ،وسلّط الله عليهم عدوهم ، والسلام) .

وعاد عمر إلى المدينة المنورة ، شاكرًا لربه الفتح المبين عليه وعلى

جند المسلمين ، واثقًا بقول الله عز وجل : ﴿أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾ (١٠٥/ الأنبياء) .

مسجد الصخرة فى عهد عبد الملك بن مروان :

لما اندثر المسجد الذى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد امر ببنائه - لبساطة مواد البناء - أراد عبد الملك بن مروان ، وكان قد آل إليه أمر المسلمين ، أن يعيد بناء مسجد الصخرة والمسجد الأقصى من جديد ، والحق أن إرادة عبد الملك بن مروان فى إعادة بناء المسجدين (الصخرة والأقصى) جاءت مواكبة لأحداث مهمة فى هذه الفترة الحاسمة فى التاريخ فى الصراع بين المسلمين والروم ، فقد كانت أوراق البردى التى تصنع فى مصر منذ الاحتلال الرومانى تحمل العلامة المسيحية المثلثة : (الصليب واسم الأقانيم الثلاثة : الأب ، والابن ، والروح القدس) ، فأمر عبد الملك بن مروان بإحلال بديل لذلك على ورق البردى يتضمن عبارة التوحيد والشهادتين ، فمنع إمبراطور الروم سِكّة الذهب عن المسلمين ، وهدد بأن يسكَ سكة عليها سبّ الإسلام ورسوله ، وهنا أُعلن عبد الملك بن مروان أمره بسك أول عملة إسلامية صرفة ، تحمل على أحد وجهيها شهادة الإسلام وعبارة : محمد رسول الله أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وعلى الوجه الآخر سَنَةَ الضَّرْب واسم مدينته واسم من أمر بضرب

السكّة من الخلفاء ، فصدرت أول عملة إسلامية ورقية سنة ٧٢ هـ ، وفى هذا العام نفسه تم بناء مسجد الصخرة كما هو مدون فى إزار الكتابة الذى يلى سقف المسجد .

ويقول الأستاذ عارف العارف فى كتابه عن مسجد الصخرة : أن عبد الملك بن مروان رصد لعمارة مسجد الصخرة خراج مصر لسبع سنين ، ووكل النفقة وإدارة العمل إلى اثنين من رجالاته ، هما رجاء بن حيوة ، أحد كبار التابعين ؛ ويزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان .

وربما كان التكليف لرجاء فاستعان رجاء بيزيد وولديه ، وكان البناء عام ٦٦ هـ - ٦٨٥ م . ويروى عارف العارف عن سبط بن الجوزى - أن البناء بدأ عام ٦٩ هـ - ٦٨٨ م ، وأن الانتهاء لا خلاف فى تاريخه ، وهو سنة ٧٢ هـ - ٦٩١ م .

وربما افتتح المسجد للصلاة قبل تمامه كما هو الحال فى كثير من المساجد الباذخة العمارة ، التى تفتتح للصلاة قبل أن تتم التكميلات الجمالية للبناء ، وسبب ذلك الظن ما ينسبه ابن البطريق وغيره إلى الوليد من أعمال فى ذلك البناء سنة ١٠٠ هـ ، ولا يمنع أن يكون الوليد - وقد أخذت له البيعة بولاية العهد ، كعادة الأمويين - قد تولى الإشراف على نظارة رجاء بن حيوة وأعماله فى المسجد المبارك .

وعمارة مسجد الصخرة تجمع بين الجمال والبهاء والجلال ، ورونق الزخارف الفسيفسائية ، وشموخ البناء ، فقد بنى على هيئة قبة كبرى ارتفاعها ثلاثون مترًا ، يحمل بدنها أربعة أكتاف (دعامات) واثنا عشر عمودًا ، ويطول (طمبورها) رقبتها نحو ارتفاع خمسة أمتار عن مستوى السقف إلى استدارة القبة ، والقبة بهذا التكوين الدائرى تعلو تحيط بالصخرة المقدسة ، ويتخلل رقبة القبة اثنتا عشرة نافذة من التشبيك المعشق بالزجاج فى تشكيلات زهرية ونباتية رائعة التلوين .

ويحيط بذلك التكوين الدائرى تكوين مثمن ، طول كل ضلع من أضلاعه عشرون مترًا ، بارتفاع عشرة أمتار إلى السقف الذى يتصل برقبة القبة مائلاً إلى الجدار الخارجى . ويكوِّن البناء المثمن حول استدارة الأعمدة الحاملة للقبة دائرتين ، تنتهى الداخلية منهما بثمانية أكتاف على زوايا أضلاع المثمن ، وبين الأكتاف ستة عشر عامودًا ، فى حين تنتهى الخارجية منهما عند الجدران الخارجية للبناء .

والقبة مزدوجة البناء من طبقتين بينهما فراغ ، صُفِّحت الطبقة الخارجية عند البناء بالنحاس المذهب ، وعندما وقع العدوان الصهيونى عام ١٩٤٨ م كانت مصفحة من الخارج بالرصاص الذى أصابته بعض طلقات المدافع الصهيونية ، وقد استبدل الرصاص بالألومنيوم

المذهب فى عمارة الدول الإسلامية التى تمت بإشراف الجامعة العربية قبل عدوان سنة ١٩٦٧ م ، ويتخلل الجدار الخارجى للبناء خمسون نافذة من الرخام المشبك أو المخرم ، وثلاثة أبواب معقودة وثلاثة أبواب صغيرة ، وقد وزعت كل هذه التشكيلات على رءوس وأوتار تخطيط نجمى هندسى ثمانى .

وقد حفلت الإنشاءات والترميمات فى القبة الداخلية بروائع التشكيلات المذهبة . والمسجد يعد آية من آيات الفن الإسلامى الرفيع سواء فى بنائه وتخطيطه أو فى نقوشه وزخرفته وخطوطه ، لكنه لم يسلم كما لم تسلم فلسطين والمقدسات الدينية من محاولات الغدر الصهيونى التى تستهدف كل ما هو مقدس عند المسلمين وغير المسلمين ، وفى مقدمة هذه المقدسات مسجدى الصخرة والأقصى .

* * *

المسجد الأقصى

أطلق هذا الاسم عليه لأنه كان أقصى المساجد بالنسبة لأرض الإسلام وقتئذ ، ثم أطلق هذا الاسم على الحرم القدسى كله ، حين نزل قول الله عز وجل فى الآية الأولى من سورة الإسراء : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء : ١) .

● ومنذ ذلك الحين صار لهذا المسجد مكانته العظيمة فى نفوس المسلمين ، فهو أولى القبلتين ، وإليه صلى كل الأنبياء والرسل ، وإليه كان يصلى الرسول محمد بن عبد الله ﷺ حتى كان نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة حين نزل جبريل بالوحى على رسول الله من عند ربه : ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء . فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوّا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ (البقرة : ١٤٤) فتوجه النبى فى صلاته نحو الكعبة ، وكان قد صلى من قبل نحو القدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا .

● والمسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين اللذين خصهما الله بالشرف والتعظيم ، وهما : المسجد الحرام بمكة المكرمة (حرم إبراهيم الخليل) ، والمسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة (حرم النبى محمد ﷺ) .

● وأن رسول الله ﷺ أسرى به ربه من المسجد الحرام إليه ، وأنه محل معراجه إلى السماء .

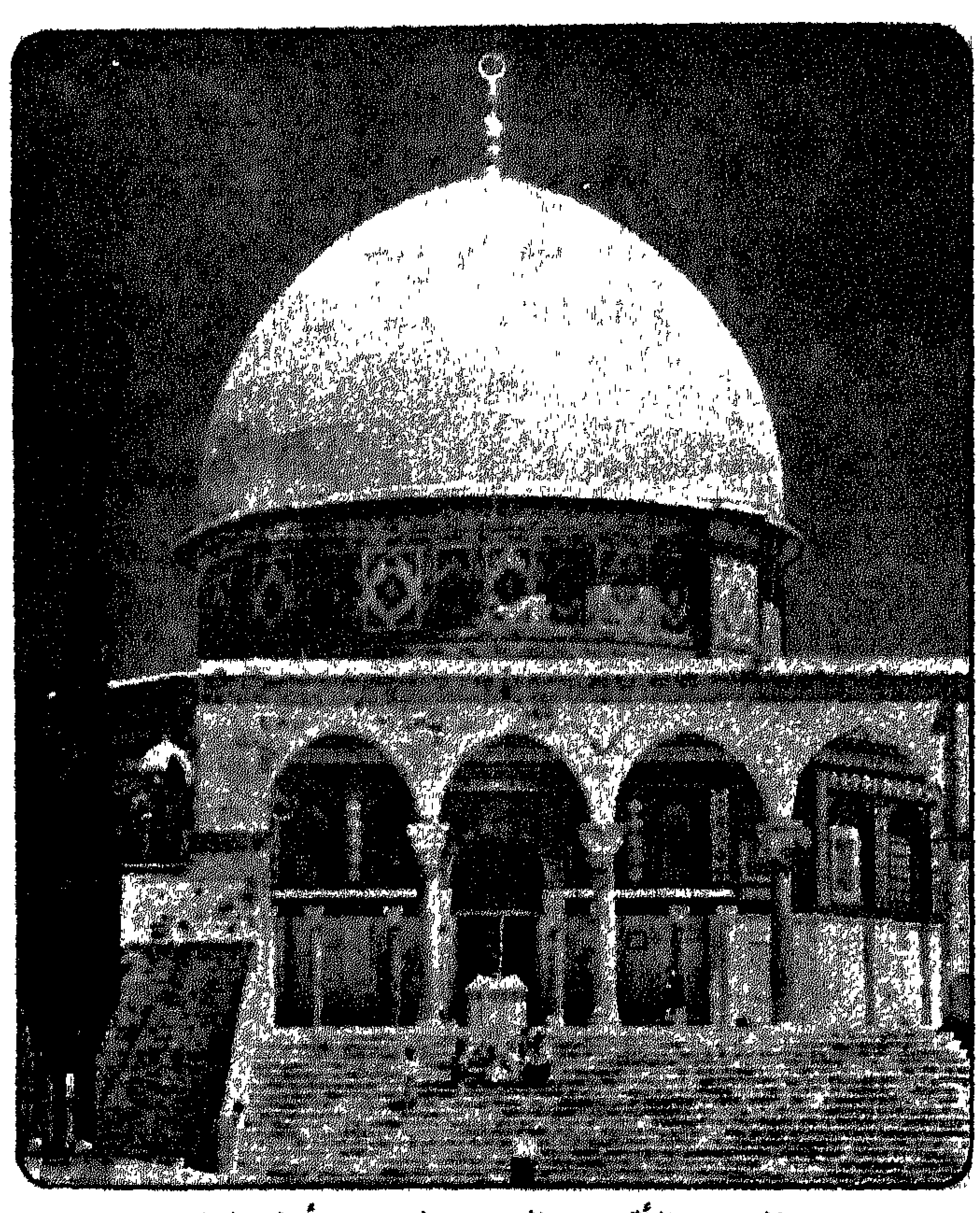
● وأن الصلاة فى المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة .

● وأنه مثوى الأنبياء والرسل وملتقى الرسالات السماوية الثلاثة .

● وأن الله عز وجل وصفه بقوله ﴿... المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ...﴾ (الإسراء - ١) .

● وأنه أقدم المساجد على الأرض بعد المسجد الحرام ، فقد بنى الأقصى بعد المسجد الحرام بأربعين عامًا .

فقد روى المحدثون عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، أى مسجد وضع فى الأرض أولا ؟ قال : « المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة » . فهذا الحديث النبوى الشريف يدل على أن المسجد الأقصى قديم فى التاريخ ، ولذا قيل بناه آدم عليه السلام ، وقيل بناه سام بن نوح ، وقيل : يعقوب بن إسحاق عليهما السلام ،



المسجد الأقصى بالقدس الشريف أولى القبلتين
وثـالث الحرمين ومسرى النبي ﷺ

وتأول بعض العلماء معنى الحديث الشريف فى أن بين بناءى المسجد الحرام والمسجد الأقصى أربعين سنة يراد به : بناء إبراهيم للمسجد الحرام وبناء يعقوب بن إسحاق للمسجد الأقصى .وقيل بناه داود وابنه سليمان عليهما السلام ، والصحيح أنهما بنيا الهيكل لا المسجد الأقصى ، ومن اليسير الجمع بين هذه الأقوال بأن آدم هو الذى أقامه وبناه ، وأن الأنبياء بعده – وكذا سام بن نوح – جدّدوه ، ومن بين من جددوه داود وسليمان .

ولا يستبعد أن إبراهيم هو الذى بناه بعد أن وضع قواعد البيت الحرام بأربعين سنة ، فقد كان إبراهيم يعيش فى فلسطين .

ويستدل لذلك بهذه الأدلة :

١ – وجود المسجد الأقصى الشريف قبل داود عليه السلام فى هذه المنطقة ، فقد كانت هذه المنطقة معمورة بالناس قبل داود ، ومنهم سام بن نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وبعيد ألاّ يؤسسوا مسجدًا فى مكان عاشوا فيه وهم صفوة وأنبياء .

٢ – عندما يريد داود أن يبنى مسجدًا على الأرض ، فهل يؤسس مسجدًا جديدا كل الجدة ؟ أم المنطقى أن يجدد المسجد الذى بناه جده إبراهيم على الأرض التى كان يسكنها ؟ الثانى أولى .

٣ – أن محمدًا كان يتجه إلى الأقصى فى صلاته قبل تحول القبلة إلى الكعبة المشرفة على مدى سبعة عشر شهرًا ، فهل كان يتجه

إلى قبلة داود أم إلى قبلة إبراهيم ، والله عز وجل يقول :﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا﴾ (آل عمران : ٦٧) . ويقول سبحانه : ﴿ملة أبيكم إبراهيم وما كان من المشركين﴾ (البقرة : ١٣٥) .فالذى يصح عند كل ذى عقل أن محمدًا كان يتجه إلى قبلة أبيه إبراهيم .

فعلى هذه الأدلة يكون من الأرجح أن الأقصى أقدم تاريخا من عهد داود وسليمان ، وسوف نذكر بعض النصوص فيما يلى لنوضح للقارئ كيف تم البناء بعد الإسلام :

● يقول الأستاذ محمد الخضرى (صاحب كتاب تاريخ الأمم الإسلامية) فى بحثه المنشور بمجلة المقتطف (المجلد ٦١ لسنة ١٩٢٢) مايلى – فى وصف مسجد الصخرة :

قال سيدنا عمر بن الخطاب للبطرك : أرنى موضعًا أبنى فيه مسجدًا . فقال : على الصخرة . فوجد عليها ردمًا كثيرًا فشرع فى إزالته وتناوله بيده برقعة فى ثوبه ، واقتدى به المسلمون كافة . فزال لحينه وأمر ببناء المسجد .

● ويقول مجير الدين فى كتابه : (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل)[1] الذى وصف فيه المسجد الأقصى كما كان فى عهده :

---

(١) عن مقال الدكتور/ محيى الدين الباز بمجلة منار الإسلام – العدد السابع – السنة السابعة عشرة .

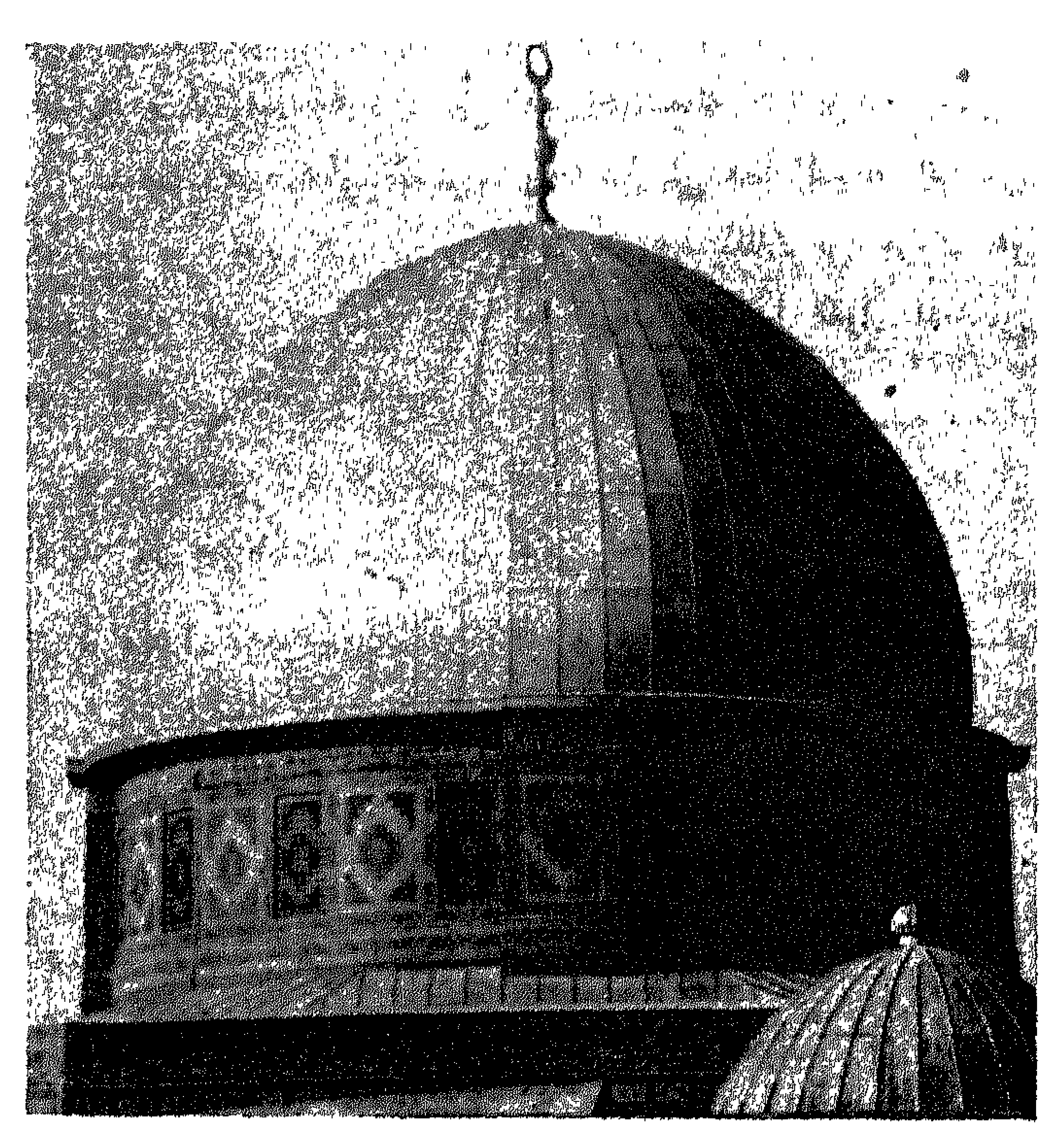
« وبداخل هذا الجامع ، وفى صدره من جهة الشرق مجمع معقود بالحجر ومشيد به محراب ويقال : لهذا المجمع جامع عمر ، وتسميته بجامع عمر لأن هذا البناء هو بقية بناء عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان قد جعله عند الفتح » .ثم يقول فى موضع آخر من الكتاب ذاته : « وبظاهر الجامع من جهة الغرب فى صحن المسجد ، مكان معقود يعرف بجامع المغاربة ، يظهر أنه من بناء سيدنا عمر بن الخطاب ، لما روى عن شداد : أن عمر لما دخل المسجد الأقصى ، مضى إلى مقدمة ممايلى الغرب فحثا فى ثوبه من التراب ، وحثونا معه فى ثيابنا ، ومضى ومضينا حتى ألقيناه فى الوادى الذى يقال له وادى جهنم ، ثم عاد وعدنا بمثلها حتى صلينا فيه » .

- وقال البكرى وابن حبيش : إن عمر بنى مسجده أمام الصخرة المشرفة ، بعد أن رفع الركام الذى كان قد تراكم فوقها مع الزمن .

- وكذلك قال المقريزى فى خططه .

- وكذلك قال جمال الدين أحمد فى كتابه (مثير الغرام)

فهذا بعض ما ذُكِرَ عن المسجد الأقصى (الأول) كما يسميه الأستاذ / عارف العارف رئيس بلدية القدس الأسبق ، وصاحب كتاب : تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك .



قبة الصخرة بالمسجد الأقصى

• أما المسجد الأقصى الحالى : فيطلق على المسجد القائم من الناحية القبلية من الحرم ، على بعد خمسمائة متر بوجه التقريب من مسجد الصخرة إلى الجنوب ، أما من بنى هذا المسجد الأقصى فَمُجْمَعٌ من عدد كبير من المؤرخين أن عبد الملك بن مروان هو الذى بناه عام ٧٤ هـ – ٦٩٢ م ، وقد أيد هذا القول المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » .

• أما محمد كرد على فى كتابه : خطط الشام فيقول : « إن الوليد بن عبد الملك هو الذى غشى قبة الأقصى بالنحاس » .

• ويقول العمرى فى كتابه : التعريف : إن الوليد أتى بالفسيفساء – أى الترابيع الزجاجية المطلية بالذهب – من القسطنطينية (إستانبول) ليزين بها مساجد الشام ومكة والمدينة والقدس ، ولم يبق منها مع تقادم العهد سوى النذر اليسير فى قبة الصخرة .

المسجد الأقصى فى العهود الإسلامية :

لقد طرأ على المسجد الأقصى عبر العصور تغيرات كثيرة نتيجة للمؤثرات الطبيعية والزمنية :

أولاً : فى عهد بنى أمية :

كان المسجد الأقصى فى عهد بنى أمية الأول أوسع مما هو عليه الآن من الناحية الشرقية وأضيق من الناحية الشمالية ، وكانت

أرضه مكسوة بالرخام ، وكانت أكثر انخفاضا من الأرض الحالية ، ويستطيع الزائر له أن يرى حتى اليوم فى الرواق الكائن شرقى القبة بعض الأعمدة التى ترجع إلى العهد الأموى .

وجاء فى (مثير الغرام) عن عبد الرحمن بن محمد بن منصور ابن ثابت عن أبيه عن جده : أن أبواب المسجد كلها كانت فى خلافة عبد الملك بن مروان مليسة بصفائح الذهب والفضة .

وفى أواخر العهد الأموى حدث زلزال (سنة ١٣٠ هـ – ٧٤٦) سقط بسببه شرقى المسجد وغربه .

وقد جاء فى وصف المسجد الأقصى أن عبد الملك بن مروان هو الذى بناه وتوأمه (مسجد الصخرة) ، وأن كلا المسجدين يضم أعمالاً رفيعة من الفن الإسلامى المتكامل التخطيط ، والبديع من الصنعة والرواء ، وإن اختلف تكوين الأقصى عن مسجد الصخرة ، فقد بنى الأقصى على تخطيط رواق الصلاة المتعامد على جدار المحراب ، واعتمد سقفه على عديد من الدعامات والأعمدة الرخامية ، وقامت فوق محرابه قبة تعد نموذجًا مصغرًا من قبة الصخرة ، وأن جدرانه مكسوة بالرخام والفسيفساء ، وأرضه مرصوفة بالرخام ، ومحوره رواق القبلة المتجهة جنوبا إلى الكعبة ، يحفه من يمينه ويساره ستة أروقة بنفس الاتجاه من الشمال إلى الجنوب تحمل الأسقف بعمد عددها ثلاثة وعشرون ، ودعامات (أكتاف) عددها تسع وأربعون دعامة .

ثانيا : في العهد العباسي :

لما قدم أبو جعفر المنصور (ثانى الخلفاء العباسيين) أمر بإعمار المسجد الأقصى ، فقلعت الصفائح الذهبية والفضية التى كانت على الأبواب ، وضربت دنانير ودراهم ، وأنفقت على إعماره حتى تم الفراغ من ذلك سنة ١٥٤ هـ/ سنة ٧٧١ م .وفى عام ١٥٨ هـ/ ٧٧٤ م حدث زلزال آخر فوقع البنيان الذى عمره المنصور ، وهدم الجزء الأكبر من المسجد يومئذ ، عدا القسم الذى حول المحراب ، فلما جاء الخليفة المهدى وجد المسجد خرابا فأمر ببنائه ، وأعيد إعمار المسجد ، فأصبح يتكون من رواق أوسط كبير يقوم على أعمدة من الرخام ويمتد من الشمال إلى الجنوب ، يغطيه جمالون عظيم ، وينتهى من الجنوب بقبة عظيمة ، وتكتنف الرواق الأوسط من كل من جانبيه سبعة أروقة موازية له واقل ارتفاعًا منه ، محمولة جميعها على أعمدة أسطوانية . وكان للمسجد يومئذ ستة وعشرون بابًا ، ويعتبر هذا الإعمار الرابع للمسجد ، وهو الذى قام به الخليفة المهدى العباسي .

ثالثًا : في العهد الفاطمي :

فى الخامس عشر من شهر محرم سنة ٤٢٥ هـ/ ١٠٣٣ م حدث زلزال خرب المسجد الأقصى - الذى كان قد عمره المهدى - خرابا ظاهرا ، فعمره الخليفة الفاطمى (الظاهر لإعزاز دين الله)

فى سنة ٤٢٦ هـ ، مبقيا ما أمكن إبقاؤه من البناء السابق ، ولم يغير في تخطيطه العباسي ، سوى تضييقه من الشرق والغرب ، بحذف أربعة أروقة من كل جانب ، وقد ظل الكثير من بناء (الظاهر) قائمًا لفترة طويلة ، مثل العقود التى تحمل القبة ، والفسيفساء الذهبية التى مازالت موجودة حتى الآن ، والرواق الأوسط بأعمدته ،وفى سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م أمر الخليفة الفاطمى (المستنصر بالله) بتجديد الواجهة الشمالية ، وسجل هذا التجديد فى كتابة كوفية ، حفرت على الواجهة الشمالية للرواق الأوسط .

رابعًا : المسجد الأقصى فى قبضة الصليبين :

عندما احتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/ سنة ١٠٩٩ م ، استعملوا المسجد لأغراضهم ، فاتخذوا جانبًا منه سكنًا لفرسان الهيكل ، والجانب الآخر مستودعًا ، وغيروا كثيرًا من معالمه ، وأضافوا إلى المسجد من الناحية الغربية وعلى طول حائط الحرم القبلى صفا مزدوجا من القناطر المعقودة ، واتخذوها مخازن للأسلحة .

خامسًا : فى العهد الأيوبى :

استطاع البطل العربى صلاح الدين الأيوبى أن يسترد بيت المقدس من أيدى الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ- ١١٨٧ م ، وقد أمر صلاح الدين بإصلاح المسجد الأقصى ، فأعيد البناء إلى حاله الصحيح ، وبذل

صلاح الدين كل ما فى وسعه لتحسين حال المسجد وتدقيق نقوشه ، فأحضر من الرخام ما لا يوجد مثله ، ومن الفص المذهب القسطنطينى مما ادخر على طول السنين ، ومحا كل ما عليه من الصور ، ولقد جدد صلاح الدين محراب المسجد وزينه بالفسيفساء ، وهناك كتابة مذهبة بالفسيفساء فوق المحراب تشير إلى ما فعله صلاح الدين وهى : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس ، عبدالله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، عندما فتحه الله على يديه سنة ٥٨٣ هـ ، وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة) .

وأتى صلاح الدين بالمنبر الجميل المصنوع من الخشب من أرز لبنان ، والمنقور المرصع بالعاج والصدف ، وهو من أجمل المنابر الأثرية وأدقها صنعة ، وقد أحرقه الصهاينة اليهود فى أغسطس سنة ١٩٦٩ م .

ومن ملوك بنى أيوب الذين لهم آثار بالمسجد الأقصى ، الملك العادل سيف الدين بكر أخو صلاح الدين ، والملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، والملك الأفضل نور الدين على ، والملك العزيز عثمان ، والملك المعظم عيسى ، وكان هؤلاء ينظفون المسجد الأقصى ويغسلونه بماء الورد ، وينفقون الأموال الطائلة على الفقراء والعاملين بالمسجد .

وفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م ، أمر الملك المعظم عيسى بإنشاء الرواق الذى يكون الواجهة الشمالية لهذا المسجد ، وهو يشتمل على سبعة أقواس ، ويقابل كل منها باب من أبواب المسجد السبعة ، وهذا الرواق تغطيه سبعة أقبية ، وقد ثبتت على واجهة الرواق الأوسط بلاطة من الرخام كتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذه الأروقة سيدنا ومولانا السلطان الملك المعظم أبو العزائم عيسى ابن الملك العادل سيف الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبى بكر بن أيوب ، خلد الله ملكه ، وذلك سنة ٦١٤ هـ » .

سادسًا : فى عهد المماليك :

توالت بعد ذلك أعمال التعمير والإصلاح بالمسجد الأقصى فى عهد المماليك ، وتدل الكتابات التى عثر عليها فى المسجد الأقصى على ما كانت للمماليك من فضل فى إعماره .

فالملك المنصور سيف الدين قلاوون ، هو الذى عمر سقف المسجد الأقصى من ناحية القبلة عند جامع الأنبياء ، وذلك سنة ٦٨٦ هـ/ ١٢٨٧ م ، وفى عهد ولده الملك الناصر جددت قبة المسجد الأقصى ، وقيل : إن الملك الناصر لم يجدد القبة نفسها وإنما جدد تذهيبها سنة ٧٢٨ هـ/ ١٢٢٧ م ، وكذلك أمر الملك

الناصر بوضع الرخام على صدر المسجد سنة ٧٢٩ هـ ، وقد تم ذلك بمعرفة الأمين ناظر الحرمين فى القدس والخليل .

وفى عهد أولاد الملك الناصر جددت أبواب المسجد الأقصى الخشبية وعمرت أجزاء من المسجد ، وقد جرت إصلاحات فى عهد الملك الأشرف قايتباى ، منها تجديد عمل الرصاص على ظاهر المسجد الأقصى ، وهناك تعمير آخر جرى فى عهد قنصوه الغورى .

سابعًا : فى عهد العثمانيين :

اهتم العثمانيون بالمسجد الأقصى ، فمن سلاطينهم الذين تولوا ترميم هذا المسجد : السلطان سليم القانونى ، والسلطان محمود الثانى ، والسلطان عبد المجيد ، والسلطان عبد الحميد الثانى ، فقد جدد السلطان محمود ترميم القبة الشريفة ، وركب السلطان عبد العزيز الزجاج الملون فى الشبابيك ، وكسى السلطان عبد الحميد أرض المسجد بالسجاد العجمى .

ثامنًا : فى عهد المجلس الإسلامى الأعلى :

طرأ على المسجد الأقصى مع طول العهد وتقادم الزمن وهن ، فضعفت الأسس ، وقد اكتشف ذلك المجلس الإسلامى الأعلى الذى انتخبه المسلمون بفلسطين سنة ١٩٢٢ م ، وكان يرأسه سماحة الشيخ أمين الحسينى ، مفتى فلسطين ، فسارع إلى القيام بمشروع واسع من أجل إعماره ، وقد أسهمت الدول العربية والإسلامية

وشعوبها بالتبرع ، وباشرت عمليات الإعمار سنة ١٩٢٥ م ، فقوّت الأقواس والعقود ، واستبدلت الأعمدة القديمة البالية التى كانت تقوم عليها القبة ، وهدم سقف الجناح الغربى الذى كان على وشك الانهيار واستبدل بسقف جديد ، وعمرّ السقف الخشبى لجناح القبة الشرقى ، وزخرفت واجهة الممرات ، وتم ترميم القبة ، وأُنشئت أُقواس جديدة تحت الأقواس القديمة للتقوية ، وانتهى العمل من ذلك كله سنة ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٧ م ، ولكن ما كاد هذا العمل يتم حتى حدث زلزال سنة ١٩٢٧ ظهرت آثاره سنة ١٩٣٦ ، فقام المجلس الإسلامى الأعلى بإصلاحات واسعة المدى ، وتمت إضاءة المسجد بالكهرباء سنة ١٩٤٥ م .

تاسعًا : المسجد الأقصى وأذى اليهود :

لم يسلم المسجد الأقصى من أذى اليهود فى الحرب التى جرت بينهم وبين العرب سنة ١٩٤٨ م ، فقد كان اليهود يصوبون نيران مدافعهم على المسجد ، وأغاروا عليه فى السادس عشر من تموز سنة ١٩٤٨ م ، وقذفوه بالمدافع فأصابوا المصلين فيه ، ولما تم إيقاف القتال وسيطر الجيش العربى الأردنى على المنطقة أمر جلالة الملك عبد الله ملك الأردن بإصلاح ما دمرته المدافع والقنابل ، وكان ذلك فى سنة ١٩٥٢ م .

وفى الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ م ، سقط المسجد الأقصى أسيرًا فى يد الصهاينة اليهود بسقوط القدس ، وباشر العدو إجراء

الحفريات حوله آنًا ، وانتهاك حرماته آنًا آخر ، بل إنهم حاولوا إحراقه فى الحادى والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٦٩ م ، فثارت ثائرة الشعوب الإسلامية ، وتم عقد مؤتمر القمة الإسلامى الأول فى مدينة الرباط فى شهر سبتمبر سنة ١٩٦٩ م ، وقد انبثقت عن المؤتمر (منظمة المؤتمر الإسلامى) التى أنيط بها متابعة موضوع القدس والمسجد الأقصى .

ولا تزال المحاولات الصهيونية جارية لتغيير معالم المسجد الأقصى ، ولكن نصر الله قريب .

نقض دعاوى اليهود فى فلسطين والقدس :

بعد هذا السرد الطويل المفصل عن مدينة القدس ومساجدها يجدر بنا أن نشير فى إيجاز إلى أن اليهود الصهاينة يزعمون أن لهم فى فلسطين والقدس حقوقًا تاريخية ودينية وقومية ، وفيما يلى نفند هذه الدعاوى الباطلة التى يختلقها اليهود .

- **فمن الناحية التاريخية :**

فإن الكنعانيين كانوا يسكنون فلسطين قديمًا ، ولهذا سميت بأرض كنعان ، ثم بسط الفراعنة المصريون نفوذهم على فلسطين حوالى عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، ثم الهكسوس الذين طردوا المصريين منها حوالى عام ١٧١٠ قبل الميلاد وظلوا يحكمونها حتى عام ١٤٨٠ قبل الميلاد ، حيث قام البطل أحمس بطردهم منها واستعادَ السيطرة

عليها منذ طردهم حتى عام ١٣٥٠ قبل الميلاد ، ثم سيطر عليها الحيثيون ، ثم المصريون مرة أخرى ، وظلت فلسطين بين شدٍّ وجذب من القوى الطامعة فى موقعها الهام حتى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، حين استولى عليها داود فحكمها ٤٠ سنة ، ومن بعده ولده سليمان ٣٣ سنة ، ثم زالت مملكة يهوذا بموت سليمان حوالى عام ٩٢٧ قبل الميلاد .

ومن هذا العرض نستخلص أن مصر القديمة حكمت فلسطين لمدة تبلغ فى مجموعها نحو ٦١٥ سنة فى التاريخ المعروف ، بخلاف التاريخ غير المعروف ، على حين أن مملكة يهوذا لم تدم أكثر من ٧٣ سنة ، وأن احتلال الرومان لفلسطين استمر حوالى ٦٧٧ سنة ، وأما العرب فقد حكموها لمدة ٤٧٧ سنة ، علاوة على حكمهم لها بعد الفتح الإسلامى ، فتكون مدة حكم العرب لها حوالى ١٣٠٠ سنة ، فأى حق إذًا لليهود فى فلسطين من الوجهة التاريخية كما يزعمون ؟

● ومن الناحية الدينية :

يزعم الصهاينة من اليهود أنهم أصحاب حق فى فلسطين باعتبارها أرض الميعاد التى جاء ذكرها فى التوراة — والتوراة منهم براء ، فقد زيفوا آياتها وأحكامها — ودعنا نسلم بصحة التوراة التى أنزلت على موسى وليس ما بأيديهم ، فسوف تلاحظ أن هذا

الوعد الإلهى إنما هو وعد لإبراهيم وذريته ، والقرآن يقرر أن : ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا﴾ (آل عمران : ٦٧) . وأن ذرية إبراهيم لا تقتصر على أحفاده من إسحاق ، فإسماعيل عليه السلام أيضًا هو الابن الأكبر لإبراهيم الخليل . وقد تحقق وعد الله لبنى إسرائيل فى ذرية إسحاق فى عصر داود وسليمان ، كما يمكن القول أن الوعد تحقق أيضًا فى ذرية إسماعيل على يد النبى محمد ﷺ الذى جاء بالدعوة الإسلامية .

فأين هذا الحق الدينى الذى يدعيه اليهود الصهاينة ؟ ثم زعمهم أن بيت المقدس قد بنى على هيكل داود وسليمان ، مع علمهم أن بيت المقدس أشد قدمًا وعراقة من العصر الذى بنى فيه الهيكل ، وإنكارهم لهذه الحقيقة ، ليتخذوا من زعمهم هذا ذريعة لهدم مسجد الصخرة والمسجد الأقصى .. قاتلهم الله .

● **ومن الناحية القومية :**

فإن مزاعمهم القومية فى التاريخ المشترك يؤسسها اليهود على أنه تاريخهم فى أرض كنعان ، وقد رأينا أن هذا التاريخ المزعوم لم يبلغ حتى ثلاثة أرباع القرن منذ عام ١٠٠٠ قبل الميلاد وحتى عام ٩٢٧ قبل الميلاد ، ومن العبث ان نقول : إن اليهود الذين

عاشوا فى إنجلترا عشرات القرون يؤلفون تاريخًا مشتركًا مع اليهود الذين عاشوا فى روسيا ودول البلقان .

وأما اللغة المشتركة فمعلوم أن هذه اللغة لا يتكلم بها أكثر من ٤٪ من يهود العالم ، وأما الأرض المشتركة ؛ فإن من السخف القول بأن الأرض التى شهدت حضارات متعاقبة على مدى خمسة آلاف عام هى أرض اليهود لأنهم ملكوها ٧٣ سنة . فأى منطق هذا فى زعم الحقوق ؟

* * *

الباب الخامس

- مسجد الإمام الحسين بالقاهرة
- مسجد السيدة زينب بالقاهرة
- مسجد السيدة نفيسة
- قبة ومسجد الإمام الشافعي
- الجامع الأزهر

مسجد الإمام الحسين بالقاهرة

وصاحبه هو الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة ، وشبيه الرسول ، وأمه فاطمة الزهراء البتول ، ولد لخمس ليال خلون من شعبان سنة ٤ هـ ، بعد عامين من ولادة أخيه الحسن رضى الله عنهما ، وفى ليلة مولده لم يبارح النبى ﷺ بيت ابنته الزهراء ، وسماه حُسَيْنًا ، وكان النبى يحب الحسن والحسين ويكثر من الدعاء لهما ولمن أحبهما ويقول : (حسين منى وأنا من حسين ، أحبَّ الله من أحب حسينًا) ، و (حسين سبط من الأسباط) ، وقد أجمع المؤرخون أنه كان أشبه الناس جسدًا بالرسول ﷺ ، متوسط الجسم ، أسود الشعر واللحية ، قوى البنية ، مقدامًا شجاعًا ، تقيًّا ناسكًا ، واسع العلم والمعرفة فى أمور الدين والدنيا ، فصيح اللسان ، قوى التأثير فى سامعيه ، وقد اشترك مع أبيه فى القتال بموقعتى الجمل وصفين ، وفى محاربة الخوارج ، وحين تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية حقنًا لدماء المسلمين ، لم يعجب الحسين ذلك ، وإن كان قد نزل مرغمًا على رغبة أخيه الأكبر ، لكن أغلب بنى هاشم لم يعجبهم

موقف الحسن من مسالمة معاوية ، واعتبروه استسلامًا ، فاتجهوا إلى الحسين يحفزونه ، لكنه لم يكن لينكث العهد ، لكن الأمور تفاقمت بطلب معاوية البيعة لابنه يزيد من بعده ، فقد عارض الحسين ذلك ، كما وافق الحسين على رأيه عبد الله بن الزبير ، وعبدالله بن أبى بكر ، فثار معاوية وأعلن تحكيم السيف فى معارضيه ، فتمت البيعة ليزيد عنوة وإكراهًا ، فلم توفى معاوية ، أخذ أهل الشيعة فى تحريض الحسين على الحضور إليهم لمبايعته بالولاية ، وبقى الحسين بمكة أربعة أشهر يتلقى رسائلهم له بذلك ، فأرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل. ليزداد يقينًا من عهودهم ويستوثق من صدقهم ، فعلم يزيد بذلك ، فولى عبد الله بن زياد الكوفة وأمره بالقضاء على مسلم ودعوته ، فقتل ابن زياد مسلمًا ، وصلبه على مرأى من أهل الكوفة الذين لاذوا بالصمت ، وكان الحسين قد غادر مكة فى طريقه إلى الكوفة ، وقد نسب إلى مسلم قوله قبل قتله : « اللّهم انتقم لنا من قوم خذلونا وقتلونا بعد أن وعدونا بالنصرة » . وكان وقع خبر مقتل مسلم كالصاعقة عليه وعلى من معه ، فمنهم من ناشد الحسين الرجوع إلى مكة ، وآخرون أصروا على إتمام السير ، فخير الحسين الناس ، فرجع من رجع ، واستمر فى السير معه من استمر ، حتى بلغ الحسين ومن معه قرية الطائف قرب كربلاء ، وكان عمر بن سعد بن أبى وقاص قد خرج إليه فى أربعة آلاف فارس ، انضم إليهم فرسان بنى يزيد ، وسأل

الحسين الناس عن كتبهم إليه ورسلهم ودعوتهم له وتأكيدهم لنصرته ، فأنكروا وتخاذلوا كسابق أمرهم مع أبيه ، وطلب الحسين ممن معه أن ينصرفوا ويتركوه لقدره ، فأبوا بشدة ، ويصيب الحسين وهو على باب خيمته نُعَاسٌ يفيق منه ، فيقص على أخته السيدة زينب رضى الله عنها أنه نعيت إليه نفسه الرؤيا ، ويطلب منها أن تتصبر لفقده ! . ودارت رحى الحرب ، واستشهد من أصحاب الحسين اثنان وسبعون رجلاً ، وكان أهل الحسين يقاتلون — حتى الأطفال — إلى أن استشهدوا جميعًا ولم ينج منهم إلا على بن الحسين لمرض أقعده عن القتال ، وأصبح الحسين وحده يقاتل الجموع المحتشدة من فرسان ابن زياد ، الذين ترددوا فى البداية ، ثم رشقوه بالسهام وهو يشرب حتى خارت قواه ووقع على الأرض وفى جسده الشريف ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ، وفى رواية أن زرعة التميمى قطع يده اليسرى ، وأن ابن ذى الجوشن هو الذى اجتزّ رأسه الشريفة ، فما أبشع مأساة كربلاء !

ويكاد يجمع كتاب السيرة على أن جسد الحسين قد دفن حيث قتل فى كربلاء بالعراق ، أما رأسه الشريف فقد حُمِلَ إلى ابن زياد فى الكوفة فقام بتجهيزه ليبشر به يزيد فى دمشق ، وأن يزيد استنكر جرم ما أقدم عليه ابن زياد وقال : (لعن الله ابن مرجانة ، والله ما أمرته بقتل الحسين .. والله لوددت أنى تنازلت عن كل شىء وأن حسينًا لم يقتل) ثم بكى بشدة .

وفى تحديد مقر الرأس الشريف قيل : هو بالمدينة ، وقيل فى كربلاء ، وفى حلب ، وفى عسقلان ، وفى مرو ، وفى الرقة ، وفى دمشق ، ولكن أرجح الأقوال أنها بالمشهد الحسينى بالقاهرة .

المشهد الحسينى بالقاهرة :

وهو الذى دفن به رأس الإمام الحسين بعد نقله من عسقلان إلى القاهرة يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ الموافق ٣١ أغسطس سنة ١١٥٣ م ، بمعرفة الأمير سيف المملكة تميم الذى حمله فى سرداب إلى قصر الزمرد ، وتم دفنه عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة . وذكر المقريزى أن الصالح طلائع بن رزيك بنى للرأس مسجدًا خارج باب زويلة من ناحية الدرب الحمر المعروف بجامع الصالح طلائع ، وأنه حين كشفت الحجب عن هذه الذخيرة النبوية ، وجد أن دماءها لم تجف بعد ، وأنها ذات ريح طيب . ويرجح أن الرأس الشريف قد دفن بالمشهد الموجود حاليًا سنة ٥٤٩ هـ بعد أن ظلت مدفونة بقصر الزمرد لمدة عام واحد . وقيل : إن أبا القاسم بن يحيى بن ناصر السكرى بدأ إنشاء مئذنة على باب المشهد ، وأن ابنه أتمها ، وهى المئذنة الحافلة بالزخارف الجصية فوق الباب المعروف بالباب الأخضر ،

والباقى منها قاعدتها المربعة وعليها لوحتان تذكاريتان ، وقد حصل حريق بالمشهد سنة ١٢٤٨ م .

وممن عنى بالمشهد بعد ذلك ، محمد باشا الشريف ، الوالى العثمانى على مصر الذى تولى الحكم عام (١٥٩٥/ ١٥٩٧ م) ، كما عنى به الأمير حسين كتخدا المتوفى سنة ١٧١٢ م ، حيث وسعه وزاد فيه .

كما أمر الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٢ م بتجديده والزيادة فيه ، وتم بناؤه سنة ١٨٧٣ م ، وبناء مئذنته سنة ١٨٧٨ م ، ثم تم بناء القبة الكبيرة أخيرًا .

ولم يبق من المشهد الفاطمى سوى أحد أبوابه ، وهو المعروف بالباب الأخضر ، وهو باب مبنى بالحجر ، وعلى يساره دائرة مفرغة محلاة بالزخارف ، وتعلوه بقايا شرفة جميلة ، وقد تخلف من المئذنة الأيوبية التى أنشأها فوق هذا الباب أبو القاسم بن يحيى ، القسم الأسفل منها ، وهو المربع الذى يحتوى على زخارف جصية نادرة وكتابة بتاريخ إنشائها .

أما التابوت الخشبى فهو أيوبى الطراز أيضًا ، ويعتبر تحفة نادرة تمثل طراز الحفر على الخشب فى العصر الأيوبى ، وبالمشهد مقصورة جديدة فضية رائعة الصنعة إسلامية الزخارف .

كما أن الزائر لقبر الرأس الحسينى الشريف يجد على يمينه بابا للحجرة التى تحوى بعض الآثار النبوية الشريفة ، وقد اشتملت هذه الآثار على مرود وملقط وقطعة من الحرير ، وأنها كانت قبل ذلك طرف بنى إبراهيم بينبع ثم بيعت للوزير تاج الدين محمد فنقلها إلى مصر وبنى لها الرباط الذى ما زال موجودًا على النيل فى منطقة (أثر النبى) بمصر القديمة . ولاتزال التجديدات والتحسينات تتوالى على المشهد الحسينى الذى يحظى بأعظم مكانة فى نفوس المسلمين عامة ، والمصريين منهم خاصة .

* * *

مسجد السيدة زينب بالقاهرة

في شهر شعبان سنة ٥ هـ ولدت السيدة زينب لأبيها على بن أبى طالب وأمها الزهراء رضى الله عنهم جميعا ، بعد أخويها السبطين الحسن والحسين ، وقيل : إن جبريل هو الذى قال لجدها النبى ﷺ : سَمِّ هذه المولودة زينب .وقد نشأت رضى الله عنها نشأة كريمة فى بيت النبوة ، فلقنت العلم والحكمة والدين والأخلاق والأدب والشجاعة وقوة اليقين ، فتهيأ لها العقل الراجح والرأى الناصح .

وقد تزوجت بابن عمها عبدالله بن جعفر بن أبى طالب (جعفر الطيار) ، وقد كان أول مولود للمسلمين بعد هجرة الحبشة ، وكان زواجها به فى المدينة المنورة فى أواخر عهد عمر بن الخطاب ، وقد حضر قرانها أكابر صحابة النبى ﷺ ، وقد أنجبت ذرية طيبة (محمد المكنى ، جعفر الأكبر ، وعلى الأكبر ، وأم كلثوم ، وأم عبدالله) وجميعهم مات دون عقب إلا على الأكبر وأم كلثوم .

وقد فقدت السيدة زينب جدها النبى ﷺ وهى بنت خمس ، ثم أمها الزهراء بعده بشهور ، وبوفاة أمها صارت السيدة زينب أمًّا لأخويها السبطين الحسن والحسين برغم أنها تصغرهما ، وكذلك

صارت أمًّا لشقيقتها أم كلثوم ، ورقية ، فتحملت المسئولية بأمانة وجدارة .

وقد كان رضى الله عنها صوامة قوامة ، قانتة لله عابدة متبتلة ، تقضى أكثر ليلها متهجدة تالية للقرآن ، لم تترك ذلك حتى فى أحلك الساعات فى كربلاء ، وقد اشتهرت بكرمها فسميت أم هاشم ، وبعزمها فسميت أم العزائم ، وبحكمتها ورجحان عقلها فسميت صاحبة الشورى ، وبعطفها على الضعفاء فسميت أم العواجز ، وكان الوالى ورجاله يعقدون جلساتهم تحت رئاستها بدارها فسميت صاحبة الديوان أو رئيسة الديوان .

وقد كانت مع أخيها الحسين فى أحداث كربلاء ، فكانت تأسو المكلوم ، وتحمى السبايا ، وترعى المريض ، وتدافع عن أصحاب الحق بهمة الأبطال ، حتى حين استشهد أخوها الحسين وسيقت مع السبايا والأسرى ، وجاز ركبها ساحة المعركة حيث الأشلاء والدماء ، فهالها الأمر وصاحت صيحة لايزال صداها يتردد عبر صفحات التاريخ : (يا محمداه ! .. صلت عليك ملائكة السماء .. هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء ، مقطّع الأعضاء .. يا محمداه ! هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة ، إلى الله المشتكى) . وقد تعرضت السيدة زينب لمحن الدّهر واختبار الأيام ، فحين اجتثت رقبة أخيها الإمام الحسين فى كربلاء ، وقتل الصناديد من أهلها وذوى قرباها ، وتفرق عنها أهل

الكوفة ، وهجم أعداء أخيها على رحلها ومتاعها وسيقت مع بقية أهلها أسرى وسبايا فى كربلاء ، لم تزد على البلاء إلا إيمانًا وصبرًا ، وعلى قسوة المحن إلا رضاء وثقة بالله ، فهى التى وقفت على جسد أخيها الإمام الشهيد وهو مقطع الأوصال تقول : (اللّهم تقبل منا هذا القليل من القربان) . فيومئذ تحقق فيها قول جدها النبى ﷺ حين حملها وهى طفلة ثم قال : (من بكى على مصاب هذه البنت كان كمن بكى على مصاب أخويها الحسن والحسين) . وهى التى خطبت فى أهل الكوفة فقالت : (يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر ، ويلكم !! أتدرون أى كبد لرسول الله فريتم ؟ أو أى كريمة له أبرزتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ وأى حرمة له انتهكتم ؟ لقد جئتم شيئًا إدًّا ، تكاد السموات تنفطر منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدًّا) . فكان لكلامها وقع الصاعقة عليهم ، فأخذوا يتلاومون حين لات مندم ، وهى التى كانت تجلس فى مجلس يزيد وبجوارها السيدة فاطمة بنت الحسين ، فتجرأ رجل من أهل الشام فقال ليزيد :

– يا أمير المؤمنين هب لى هذه الجارية !

فارتعدت فرائص السيدة فاطمة وأخذت بثياب عمتها وقالت : (يا عمتاه أوتمت واستخدم !) . فقالت السيدة زينب للشامى فى ثورة وشجاعة : (كذبت ولؤمت ، ما جعل الله ذلك لك ولا لأميرك) وذلك فى مجلس الأمير نفسه ، فغضب يزيد وقال :

(لو شئت أن أفعل لفعلت) . فقالت السيدة زينب : (كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج عن ملتنا وتدين بغير ديننا) .فاستطار يزيد غضبًا وقال : (إيّاى تستقبلين هذا الكلام ، إنما خرج من الدين أبوك وأخوك) . فقالت له : (بدين أبى وأخى اهتديت أنت وأبوك وجدك إن كنت مسلمًا) ، فألقمته حجرًا فسكت . وأمر يزيد بسفر السيدة زينب وأهلها معززة مكرمة إلى المدينة ، ولكن بنو أمية خشوا على أنفسهم مما قد يثيره وجودها وأهلها بالمدينة من حنق وكراهية لهم ، فطلب منها والى المدينة أن ترحل عن المدينة وأن تقيم حيث تشاء ، فرحلت ومعها أهلها تريد مصر ، فوصلتها فى شعبان عام ٦١ هـ ، واستقبلها جموع المسلمين مع والى مصر على مشارف مصر ، حتى إذا وصلت الفسطاط مضى بها والى مصر آنَ ذاك مسلمة بن مخلد الأنصارى إلى داره ، فأقامت بها قرابة عام لم تبرحها حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٢ هـ ، فدفنت حيث كانت تقيم فى الجهة البحرية من دار مسلمة بن مخلد الأنصارى .

مسجد السيدة زينب :

كانت دار مسلمة تشرف على الخليج الذى يخرج من النيل عند فم الخليج وينتهى عند السويس ، وكان ميدان السيدة زينب الحالى يعرف باسم قنطرة السباع ، وفى عام ١٣١٥ هـ تم ردم

الجزء الأوسط من الخليج ، فاختفت القناطر ، ومع الردم تم توسيع الميدان ، وأثناء التوسيع اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب الذى كان الوالى العثمانى على باشا قد جدده (٩٥١ هـ/ ١٥٤٧ م) ، ثم أعاد تجديده الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٠ هـ .

ومنذ اكتشاف واجهة الجامع فى القرن التاسع عشر أصبح يطلق على الميدان - بل وعلى الحى كله - اسم السيدة زينب ، أما المسجد الحالى فقد أقامته وزارة الأوقاف سنة ١٩٤٠ م ، وهو يتكون من سبعة أروقة موازية للقبلة ، يتوسطها صحن مربع مغطى بقبة ، ويقابل القبلة قبة ضريح السيدة زينب ، ويتقدم المسجد من الناحية الشمالية رحبتان يوجد بهما مدخلان رئيسيان يفصل بينهما مستطيل تعلوه شخشيخة ، وفى الطرف الشمالى الغربى يوجد ضريح سيدى العتريس ، وقد قامت وزارة الأوقاف بعد ذلك بتوسعة المسجد بإضافة مساحة تبلغ ١٧ × ٣٢ مترا ، ثم أضافت للمسجد مساحة أخرى مماثلة للأولى تمامًا ، ومحرابًا جديدًا يتوسط الإضافة الجديدة ، وقد أصبحت مساحة المسجد حاليا سبعة آلاف متر مربع . وللمسجد على الواجهة الرئيسية التى تطل على الميدان ثلاثة أبواب تؤدى للمسجد ، ثم باب فى الطرف الغربى للنساء ، وتقوم المئذنة على يسار هذا الباب

الذى يعرف بباب سيدى العتريس ، وهى مئذنة فريدة فى نقوشها . ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من خمسة وأربعين مترًا عن سطح الأرض ، وبها ثلاث شرفات تحيط بها .

ويحيط بالركن الغربى البحرى للمسجد سور حديدى بداخله قبتان صغيرتان للعتريس والعيدروس ، وتقع الواجهة الغربية للمسجد على شارع السدّ ، وبها مدخلان .

وللمسجد واجهتان أخريان ، إحداهما على شارع العتريس ، وهى الواجهة الشرقية ، وبها مدخل يؤدى إلى المكتبة وقاعة الاطلاع ، وباقى ملحقات المسجد الأخرى تطل على الفناء الواقع بين دورة مياه المسجد والجدار البحرى للمسجد الزعفرانى المجاور .

وقد أنشئت واجهات المسجد ومنارته وقبة الضريح على الطراز المملوكى ، وهى حافلة بالزخارف العربية والمقرنصات والكتابات القرآنية والأشعار . ويجرى الآن توسعة المسجد بإضافة مساحات جديدة إليه .

* * *

مسجد السيدة نفيسة

وهى السيدة نفيسة بنت الإمام حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ولدت بمكة فى شهر ربيع الأول سنة ١٤٥ هـ ،وأقامت بالمدينة المنورة فى صحبة والدها الذى كان عاملاً عليها من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسين . وقد نشأت كأهل البيت محبة للدين ، مقبلة على العبادة ، ولازمت الحرم النبوى الشريف ، وكان أبوها يدخلها الحجرة النبوية كثيرًا ويقول : (يا رسول الله إنى راض عن نفيسة) ، وظل على ذلك حتى أتاه الرسول ﷺ فى منامه وقال له : (يا حسن إننى راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها ، والحق راضٍ عنها برضاى عنها) .

وقد تزوجت من إسحاق المؤتمن ، من أهل الصلاح والدين ، وقد زارت معه قبر الخليل فى آخر حجة لها فى أوائل سنة ١٩٣ هـ ، وقد رزقت من إسحاق بالقاسم وأم كلثوم ، لكنهما لم يعقبا .

وإلى مصر قدمت السيدة نفيسة مع زوجها فى شهر رمضان سنة ١٩٣ هـ ، وقيل : إنها دخلت مصر مع أبيها حسن الأنور المدفون بمصر ، واستقبلها عند قدومها أهل مصر بالهوادج عند العريش ، لما لها ولآل البيت فى نفوس المصريين من منزلة عظيمة .

وقد نزلت بدار جمال الدين عبدالله بن الجصاص كبير تجار مصر ، وظلت بها عدة أشهر ، ثم انتقلت منها إلى دار أم هانئ ، وفى تلك الدار بجهة المَنْصُوصة تَردَّد عليها آلاف المتبركين بها حتى أقلق ذلك زوجها ، فطلب منها العودة إلى الحجاز ، لكنها أجابته بقولها : (لا أستطيع ذلك ، لأنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وقال لى لا ترحلى من مصر ، فإن الله تبارك وتعالى متوفيك فيها) .

وفى دار أم هانئ ظهرت وانتشرت كرامات السيدة نفيسة ، على مدى خمسة عشر عامًا إلا عشرة أيام ، فقد داهمها المرض فى أول رجب سنة ٢٠٨ هـ ، وحين أحست بدنو أجلها أرسلت إلى زوجها إسحاق المؤتمن تستحضره من المدينة حيث كان عاملاً عليها من قبل العباسيين خلفًا لأبيها حسن الأنور ، وقد حفرت قبرها الشريف بيدها فى بيتها الذى كان قد أهداه إليها السرى ابن الحكم ، وقد توفيت وهى صائمة كما كانت تتمنى على الله فى الجمعة الأولى من شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ ، وكان زوجها قد حضر يوم وفاتها ، فجهز لجثمانها الطاهر تابوتًا ليحمل رفاتها إلى المدينة لتدفن فى بقيع الغرقد ، ولكن أهل مصر استعطفوه واستجاروا بوالى مصر عبد الله السرى بن الحكم ، لعله يصرف إسحاق المؤتمن عن رأيه ، فقبل زوجها بعد ، ، فتم دفنها فى دار إقامتها بدرب السباع بين القطائع والعسكر ، والتى سميت بعد ذلك (كوم الجارحى) .

وصف المسجد :

يقع المسجد النفيسى فى الحى المعروف باسمها فى درب السباع بحى الخليفة بالقاهرة ، وينسب إلى عبدالله السرى بن الحكم الوالى على مصر من قبل العباسيين ، فهو أول من بنى على قبر السيدة نفيسة ، ثم تهدم ، وفى عام ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م) أمر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بتجديد الضريح وإنشاء قبة عليه ، وقد تمت هذه البناية على يد ولده الأمير جلال الدين خليل فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٢ هـ .

وفى سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م أمر الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى بتجديد القبة التى تصدّعت ، وكسا المحراب بالرخام ، وبنى غرب المشهد مدفنا للفاطميين .

وفى سنة ٧١٤ هـ اهتم الملك الناصر محمد بن قلاوون بالمشهد فجدده وأنشأ بجواره مسجدًا سنة ٧١٤ هـ ، كما ولى ناظرًا من العباسيين يقيم بمصر للقيام بأمور المشهد .

والمشهد بعمارته الباقية من أعمال الأمير عبد الرحمن كتخدا عام (١١٧٣ هـ/ ١٧٦٠ م) .

وقد حدث حريق بالمشهد فى أواخر عام ١٣١٠ هـ ، أتلف النصف الشرقى منه ، فأمر الخديوى عباس حلمى الثانى بإنشائه وكذا بتجديد الضريح ..

وواجهة المسجد الرئيسية يتوسطها المدخل الذى يرتفع ويبرز عن سمتها ، تعلوه عمارة رشيقة مبنية هى والواجهة على الطراز المملوكى ، وصحن المسجد مربع الشكل ومسقوف بالخشب المحلى بالزخارف العربية ، ومحمول على صفوف ثلاثة من العقود المرتكزة على الأعمدة الرخامية ، وتتوسط البائكة الثانية من أعلى شخشيخة .

وللمسجد محراب بديع الصنع يتوسط جدار القبلة ، وقد كسيت جوانبه بالقيشانى المتنوع الألوان ، وعلى يمينه باب يقع فى نفس جدار القبلة يوصل إلى ردهة لها سقف محلى بالزخارف والنقوش تتوسطه شخشيخة ، وهذه الردهة تؤدى إلى الضريح عن طريق فتحة معقودة ، وتعلو الضريح قبة ترتكز على أربعة أركان من المقرنصات متعدد الحطات .

وفى السنوات الخمس الأخيرة تم عمل تجديدات وتوسعات كبيرة فى الجهة الجنوبية من المسجد القديم .

* * *

قبة ومسجد الإمام الشافعى

يقع هذا الأثر فى شارع الإمام الشافعى ، وقد شرع صلاح الدين الأيوبى فى سنة (٥٧٣ هـ/ ١١٧٦ م) فى بناء المدرسة الصلاحية بجوار قبر الشافعى ، وكان الفراغ منها فى سنة (٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م) ، وكان خاصة بالفقهاء أصحاب الشافعى ومعقلا لنشر هذا المذهب ، وقد تخلف من المدرسة الصلاحية الكتابة التاريخية المكتوبة بالخط النسخى الأيوبى المبينة لتاريخ إنشائها ، وهى مودعة بمتحف الفن الإسلامى بميدان أحمد ماهر بباب الخلق بالقاهرة ، وقد تم تجديد المسجد فى عهد الخديوى توفيق (فى سنة ١٣٠٩ هـ/ ١٨٩١ م) على ما هو عليه الآن ، وبقى من عمارة صلاح الدين الأولى لقبر الشافعى تابوت فاخر من الخشب ، غطاؤه هرمى الشكل ، عليه نقوش وكتابات بالخط الكوفى والنسخى ، وزخارفه عبارة عن وحدات نباتية دقيقة داخل أشكال هندسية .

وقد أنشئت قبة مسجد الإمام الشافعى عام (٦٠٨هـ-١٢١١ م) فى عهد السلطان الملك الكامل محمد بن العادل عندما دفنت أمه هناك ، وهذه القبة خشبية مكسوّة بالرصاص ، وقد كسيت جدرانها من الداخل بالرخام ، وفى جدارها الشرقى ثلاثة محاريب طوقيها

خشبية منقوشة ، ثم محراب رابع أحدث لتصويب القبلة ، وبالقبة تابوت آخر فوق قبر أم الملك الكامل ، وهو لا يقل فى أهميته الجمالية عن تابوت الشافعى .

وقبة الإمام الشافعى تعتبر من أجمل القباب فى مصر الإسلامية ، وتنتهى قاعدة القبة المربعة من الخارج من أعلاها على ارتفاع ١٠,٦١ أمتار بشرفة ارتفاعها ١,٨٠ مترًا ، وبها شرفات مسننة جميلة بأسفلها محاريب ذات عقود مثلثة محلاة بزخارف جصية وفوق هذه القاعدة المربعة توجد القبة الخشبية بعد قليل عن الشرفة من الداخل ، ويبلغ ارتفاع القبة ١٦,٧٨ م من سطح الأرض ، ويتكون مقرنص القبة من ثلاث حطات مخوصة مزخرفة ، وهنا يبدأ تعدد طاقات المقرنص ، إذ كان قبل ذلك يتكون من حطتين فى نهاية العصر الفاطمى ، كما يبدو فى ضريحى محمد الجعفرى ومشهد السيدة رقية .

وفى قبة الإمام الشافعى نجد أن الحطة السفلية مكونة من خمسة مقرنصات تعلوها سبعة فى المنطقة الوسطى ، ثم ثلاثة فى المنطقة العلوية ، وبقمة القبة من الخارج يوجد قارب برونزى يسمى العشارى كان يوضع فيه الحبوب لإطعام الطيور ، وهو يشبه الذى كان موجودا فوق مئذنة الجامع الطولونى حتى عام (١١٠٥هـ/١٧٦٣ م) .

وفى سنة (٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م) أمر السلطان قايتباى بإصلاح القبة ، وكذلك جددها الملك الأشرف قنصوه الغـورى ، كما أجرى على بك الكبير عمارة كبيرة لها فى سنة (١١٨٦ هـ/ ١٧٧٢ م) .

ومن آثار الأيوبيين أيضًا قبة الخلفاء العباسيين التى تقع خلف مشهد السيدة نفيسة وتضم رفات عدد من الخلفاء العباسيين وكذا أولاد الظاهر بيبرس ، ومقرنص هذه القبة يتفق مع مقرنص قبة شجرة الدر ، بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية ، وقد أمرت شجرة الدر بإنشائها ثم دفنت بها .

* * *

الجامع الأزهر

ويقع هذا المسجد بالميدان المسمى باسمه بحىّ الجمالية بالقاهرة ، وتم إنشاؤه بين (٣٥٩/ ٣٦١ هـ) - (٩٧٠/ ٩٧٣ م) وهو أول أثر فاطمى فى مصر ، أنشأه جوهر الصقلى قائد جيش المعز لدين الله الفاطمى ، بأمر من المعز . وقد أقيم الجامع الأزهر فى أول الأمر ليكون مسجدًا جامعًا للقاهرة الفاطمية ، وليقوم مقام الجامع الطولونى فى القطائع ، وجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط ، ولكنه أصبح بعد ذلك مدرسة يتلقى فيها الطلاب أصول المذهب الشيعى (مذهب الفاطميين) ، غير أن صلاح الدين الأيوبى الذى كان يدين بالمذهب السنى عطله ، ثم ازدهر ثانية فى عهد دولة المماليك البحرية ، وبعد ذلك صار أشهر جامع فى البلاد الإسلامية ، وأصبح معهدًا إسلاميًا يقصد إليه وفود الطلاب من جميع الأقطار الإسلامية لدراسة كل المذاهب الفقهية واللغة العربية وأصول الدين ، وكافة أصول وفروع وروافد العلوم الإسلامية .

ومساحة الجامع الأول كانت تقرب من نصف مساحته الآن ، فقد أضيفت إليه زيادات فى عهود مختلفة حتى وصل إلى ما هو عليه حاليًا . ويتوسط الجامع الأزهر صحن مكشوف تحيط به

أربعة أروقة ، أكبرها رواق القبلة ، وترتكز عقود الأروقة على أعمدة من الرخام مختلفة الطرز ، والعقود من الطراز المدبب إلا ما كان منها حول الصحن فهى مثلثة الشكل ، ويرجع تاريخها إلى أواخر الدولة الفاطمية وبداية العصر الأيوبى .

وليس بالجامع مئذنة ترجع إلى عصر إنشائه ، والمآذن الحالية تنسب للسلطان قايتباى ، والسلطان الغورى ، والأمير عبد الرحمن كتخدا ، وكلهم من المماليك ، ويقطع رواق القبلة مجاز قاطع يجرى عموديًّا ويتجه من الصحن إلى المحراب ، وسقفه مرتفع عن سقف الرواق ، وبه نوافذ علوية جانبية للإنارة الداخلية والتهوية ، كما أن به بعض النقوش الجصيّة التى تنسب للعصر الفاطمى .

وقد كانت هناك ثلاث قباب ؛ إحداها فى المنطقة التى تعلو المحراب الأصلى ، وواحدة فى كل من ركنى رواق القبلة ، وقد شوهد هذا التصميم بعد ذلك بوضوح فى مسجد الحاكم برواق القبلة .

ويمثل الجامع الأزهر بشكله الحالى مجموعة من المنشآت والزيادات التى ضمت إليه فى أزمنة مختلفة ، إذ يقابل القادم إليه بابان كبيران أنشأهما الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١٧٥٣ م ، ويعرفان باسم (باب المزينين) ، والكتابة التاريخية التى تشاهد فوقه تثبت تاريخ الإنشاء ، كما توجد على يمين الداخل إليه المدرسة الطيبرسية التى

أنشأها الأمير طيبرس العلائى سنة ١٣٠٩ م ، وجدد واجهتها الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وأمامها المدرسة الأقبغاوية التى أنشأها الأمير أقبغا عبد الواحد سنة ١٣٤٠ م ، التى تحتفظ الآن بمكتبة الأزهر التى أنشئت سنة ١٨٩٦ م .

ويلى ذلك الباب الأوسط الذى جدد إنشاءه السلطان قايتباى هو والمئذنة الرشيقة بجواره سنة ١٤٦٨ م ، ومن هذا الباب نصل إلى الصحن المحاط بعقود مثلثة الشكل ترجع إلى نهاية العصر الفاطمى ، أما باقى عقود الجامع فقد جددت أكثر من مرة ، واكتشف المحراب القديم بزخارفه الجصية وكتاباته سنة ١٩٣٣ م ، أما الزخارف الجصية التى تعلو المحراب فإنها ترجع إلى الإصلاح الذى قام به الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦ م .

وخلف المحراب القديم يوجد رواق آخر مرتفع عن القديم ، وهو من عمل الأمير عبد الرحمن كتخدا فى سنة ١٧٥٣ ، وقد ألحق بنهايته القبلية مدفناً له ، ويوجد فى الجانب الشرقى البحرى المدرسة الجوهرية التى أضافها جوهر القنقبائى فى سنة ١٤٤٠ م ، وهى عبارة عن مدرسة صغيرة ملحق بها قبة صغيرة دفن منشئها تحتها .

ويؤدى دهليز مدفن عبد الرحمن كتخدا إلى باب الصعايدة ، وهو من عمله أيضًا ، ويشبه الباب الرئيسى للمسجد الحرام باب

المزينين ، كما يوجد مدخل آخر خلف الرواق الجديد الذى أضافه كتخدا ، وهو أيضًا من إنشائه ويعرف باسم باب الشوربة .

وفى أثناء القرن التاسع عشر تمت بالمسجد عدة إصلاحات وترميمات فى عهد محمد على وأبناء أسرته سعيد وإسماعيل وتوفيق ، أما المكتبة فقد أنشئت فى عهد عباس حلمى الثانى سنة ١٨٨٦ م ، وقد اختيرت المدرسة الأقبغاوية مكانًا لها .

هكذا أصبح الأزهر بيتا للعلم والحكمة ، ومنارة للفكر والثقافة الإسلامية ، يحمل لواء المعرفة عبر قرون طويلة ، ويحفظ التراث الإسلامى دينًا وعلمًا ولغة لينشره فى الآفاق ، وقد تخرج منه أفواج من العلماء الأجلاء انتشروا فى بقاع الأرض ، وحملوا مشاعل الفكر والمعرفة والثقافة فأضاءوا الأرض علمًا وملئوها نورا .

دور الجامع الأزهر فى العالم الإسلامى :

منذ القرن الثامن الهجرى تبوأ الأزهر فى مصر والعالم العربى والإسلامى نوعًا من الزعامة الفكرية والثقافية حيث كان يتمتع فى ظل دولة المماليك برعاية خاصة ، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ، ويشغلون وظائف القضاء والفتوى ، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد للمسلمين ، وكثيرًا ما كان هذا النفوذ يؤثر أعظم التأثير فى سياسة الدولة العليا على مدى قرون طويلة ، ولقد كان للأزهر عبر التاريخ أدوار متعددة منها :

١ - دور الأزهر العلمى :

للأزهر دور عظيم فى نشر العلم والمعرفة ، والحافظ على اللغة العربية والتراث الإسلامى ، وبعث الحضارة العربية والإسلامية ، وتزويد العالم الإسلامى بالعلماء الذين يربطون بين الدين والحياة ، والدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإنشاء المراكز الثقافية والمعاهد الإسلامية فى أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا ، وفى جامعة الأزهر يدرس الآن طلاب ٥٥ جنسية مختلفة .

٢ - دور الأزهر التاريخى :

قام الأزهر بدور كبير مؤثر فى السياسة وصنع التاريخ ، وخاصة فى إذكاء الحركة الوطنية فى مصر الحديثة ، وقد تجلت زعامته الشعبية خلال الحملة الفرنسية على مصر ، وخلال حكم المماليك والعثمانيين ، وضد حملة (فريزر) ، وفى ثورة سنة ١٩١٩ ، وثورة عرابى ، وثورة سنة ١٩٥٢ ، وما تلاها من مواقف ومعارك .

٣ - دور الأزهر الروحى :

للأزهر أدوار روحية خالدة ، فقد قاوم شتى تيارات الإلحاد والمذاهب الهدامة والحملات التبشيرية ، وتصدى للإرهاب الفكرى ولدعاوى المستشرقين المنحرفين وأباطيلهم ، واستطاع أن يصحح كثيرًا من المفاهيم الدينية لدى الشعوب الإسلامية ، وأن يحافظ

على التراث الإسلامى وعلى لغة القرآن ، وتأصيل المبادئ والقيم الروحية ، وإصدار الفتاوى الصحيحة فى مشكلات المسلمين ، وهو الآن كعبة طلاب المعرفة ، وملتقى آلاف الطلاب من كل الجنسيات ، وسفراؤه ينشرون النور فى أرجاء كل القارات .

٤ - دور الأزهر الاجتماعى :

لم يعد دور الأزهر مقصورًا على النشاط الروحى ، فقد نزل بقوة إلى ميدان العمل الاجتماعى حتى شمل نشاطه كل المجالات ، وعمل على تلاحم قوى المسلمين فى كل مكان ، وأشاع الحب والمودة وروح الإسلام بين المسلمين وغيرهم ، للقضاء على كل فتنة فى مهدها ، ووقاية المجتمعات من آثارها .

٥ - دور الأزهر السياسى :

ولم يتخلف الأزهر يومًا عن دوره السياسى ، تجاه بلده مصر ، أو تجاه كل بلاد العالم الإسلامى ، فله مواقفه المشهودة والمشهورة فى دفع الظلم والجور ، وإقرار العدل ، وفرض حقوق الإنسان على الحكام فى كل زمان ومكان ، وخاصة فى عصور المماليك ، حيث كان السلاطين يحسبون لعلمائه حسابهم ، ويستعينون بهم فى تثبيت سلطانهم ، وقد امتد ذلك التأثير بوضوح فى تولية محمد على حكم مصر ، بل إن الأزهر وقف على مدى ألف عام مضت يدافع عن استقلال البلاد ضد الغاصبين والطامعين .

٦ – دور الأزهر القومى :

لقد أسهم الأزهر بدور عظيم فى بلورة الروح القومية ، وإذكاء الحس الوطنى لدى الشعوب العربية والإسلامية ، ووقف فى وجه كل محاولات العنصرية والتفرقة والعصبية القبلية والعقيدية ، ولقد كان الأزهر معقل الجهاد وحصن المقاومة ضد عوامل الضعف والتفكك فى كل عصور حياته الطويلة ، حتى قال بعض المؤرخين : (إن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر ، وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة ، والذى كان يفرض عليه دون مبرر حقيقى تصادمًا بين الإيمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين إرادة الحياة التى ترفض الاستبداد) .

• الجامع الأزهر فى عصرنا :

لقد أصبح الجامع الأزهر من أعظم المؤسسات تأثيرًا فى الحياة ، وهو يضم عديدًا من المؤسسات والهيئات التى تتكامل مع بعضها البعض فى أداء الأدوار المنوطة به وتنفيذ الواجبات الملقاة على عواتقه ومن ذلك :

(أ) المجلس الأعلى للأزهر :

وهو الهيئة التى تحمل مسئوليات التوجيه فى كل شئون الأزهر وتخطط لأنواع النشاط فى هيئاته المختلفة ، ويرأس شيخ الأزهر

هذا المجلس الذى يتكون من وكيل الأزهر ، ومدير جامعة الأزهر ، وعمداء كليات الأزهر ، وأربعة من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ، وأحد وكلاء وزارات الأوقاف والعدل والخزانة والتربية والتعليم ، ومدير الثقافة والبعوث الإسلامية ، ومدير معاهد الأزهر ، وثلاثة أعضاء ممن لهم خبرة فى التعليم الجامعى .

(ب) مجمع البحوث الإسلامية :

وهو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ، ويقوم بدراسة كل ما يتصل بهذه البحوث ، وتجديد الثقافة الإسلامية ، وتجريدها من الشوائب ، وتجليتها فى جوهرها الأصيل الخالص وتوسيع نطاق العلم بها ، وبيان الرأى فيما يجدّ من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة ، وتتبع كل ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث الأجانب ، ورسم نظام بعوث الأزهر ، وتوجيه الدراسات الإسلامية ، وقد أنشئ هذا المجمع فى عام ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م .

(جـ) إدارة البحوث والنشر والثقافة الإسلامية :

وهى الجهاز الذى يهيئ لمجمع البحوث الإسلامية أسباب البحث والدراسة فى الموضوعات التى تتصل باختصاصه ، وتقوم بالإعداد والتحضير لهذه البحوث ، وتحمل مسئولية المتابعة والتنفيذ ، وتضع نتائج البحوث موضع الانتفاع بها ، كما يختص بكل ما يتصل بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية ، سواء فى البعوث أو الدعاة ،

واستقبال الطلاب الوافدين للدراسة من شتى البلاد الإسلامية وغيرهم فى نطاق وأعمال الأزهر ، كذا فحص المؤلفات والمنشورات الإسلامية أو التى تناهض الدين وتتعرض له ، كذلك إصدار تصاريح طبع المصاحف ، ومراقبة ما يظهر منها للتداول ، وإعدام ما لا يصح ، فضلاً عن متابعة الأجهزة الإعلامية على ما ينشر أو يذاع من الناحية الدينية .

(د) إدارة المعاهد الأزهرية :

الغرض من المعاهد الأزهرية الملحقة بالأزهر هو تزويد الطلاب بالقدر الكافى من الثقافة الإسلامية ، وتزويدهم بالمعارف والخبرات التى يتزود بها نظراؤهم فى المدارس الأخرى المماثلة ، وتهيئة الفرص المتكافئة للدخول فى كليات الجامعات الأخرى فى مصر وسائر الكليات ومعاهد التعليم العالى .

(هـ) جامعة الأزهر :

انطلاقًا من رسالة الأزهر وتواصلها فى الداخل والخارج ، وتواصل الرسالة بين الأزهر القديم والجديد ، فقد صدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ م بإنشاء جامعة للأزهر تضم العديد من الكليات التى لم تكن موجودة من قبل ، كالتجارة ، والطب ، والهندسة ، والزراعة ، والدراسات الإسلامية والعربية ، والدراسات الإنسانية ، وغيرها .

* * *

أهم المراجع

١ – القرآن الكريم ، وكتب السنة .

٢ – أخبار مكة ، الأزرقى .

٣ – الكعبة والعلم الحديث ، د/ على مطاوع .

٤ – وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، السمهودى .

٥ – عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، الجبرتى .

٦ – نور الأبصار فى مناقب أهل البيت الأخيار ، الشبلنجى .

٧ – طبقات الشافعية ، تاج الدين السبكى .

٨ – الآثار النبوية ، أحمد تيمور .

٩ – تاريخ المساجد الأثرية ، حسن عبد الوهاب .

١٠ – المساجد ، د . حسين مؤنس .

١١ – مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، د . سعاد ماهر .

١٢ – مساجد مصر ومدارسها فى العصر الفاطمى ، د . أحمد فكرى .

١٣ – العمارة الإسلامية ، د . كمال الدين سامح .

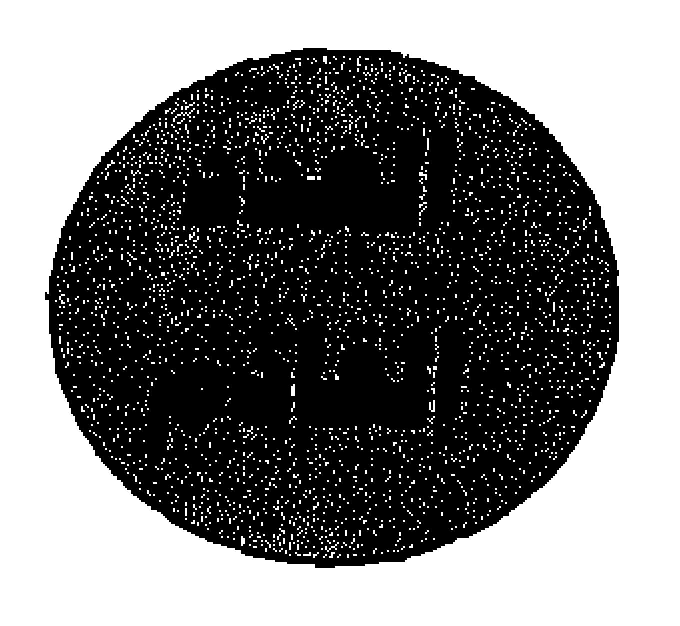
١٤ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مجير الدين الحنبلى .

١٥ - عروبة بيت المقدس ، د . إسحاق موسى الحسينى .

١٦ - تاريخ أورشليم ، خليل بن خطار سركيس .

١٧ - تاريخ القدس ، خليل طوطح وبولس شحادة .

١٨ - الحضرة الأنسية فى الرحلة القدسية ، عبد الغنى النابلسى .



اوراق مجهولة للدكتور طه حسين

للأستاذ / ابراهيم عبد العزيز

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

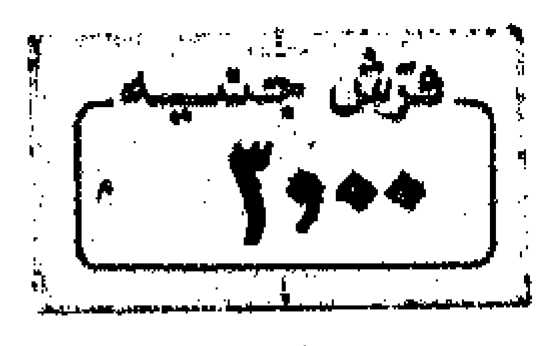
رقم الإيداع	١٩٩٧/٨١٤٤	
الترقيم الدولى	977-02-5440-1	ISBN

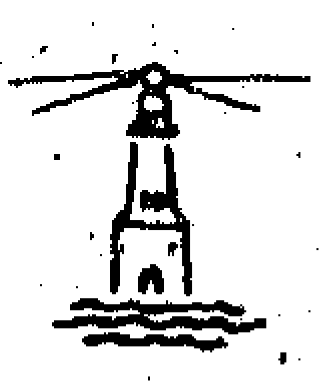
١/٩٣/١١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

السياحة أحد الأنشطة الإنسانية الهامة فى حياة الأفراد والأمم ، فوائدها جمة ، وأنواعها كثيرة ، والحديث عن الآثار الإسلامية حديث عن المساجد التى يُشدُّ إليها الرحال ، وترفل فى حلل الجمال ، وهو أيضًا حديث عن تراث الفقهاء والعلماء والحكماء ، وتاريخ السلاطين والملوك والأمراء ، فهى مجلبة للأنس ، وراحة للنفس ، وثقافة للعقل .

فتعال معنا عزيزى القارئ فى سياحة ، نرى فيها عظمة التاريخ وما له من جلال ، ونغترف من منابع التراث لنتحلى بالكمال ونقتدى بالرجال .





دار المعارف

٤٠٦٥٩٤/٠١

